كتاب الإصلاح

سلسلة كتب الكترونية توزع مجانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

التدين الإسلامي
قواعده ـ أولوياته ـ آفاته

المؤلف

الهادي بريك

الكتاب السادس والعشرون - ماي 2020

يوزّع مجّانا عبر البريد الألكتروني

التدين الإسلامي
قواعده ـ أولوياته ـ آفاته

المؤلف

الهادي بريك

كتاب الأمة

العدد السادس والعشرون

ر.د.م.ك: 4 - 106 - 59 - 9938 - 978 :ISBN

جميع الحقوق محفوظة للكاتب©

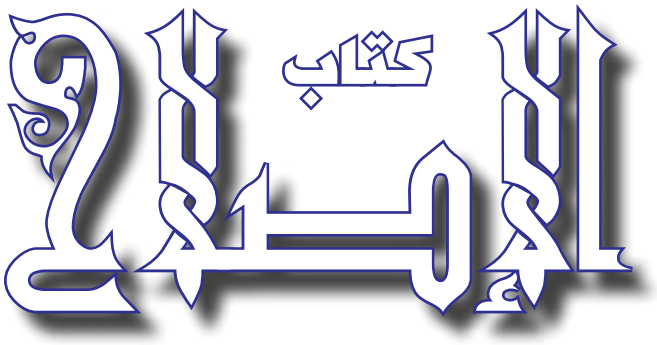

سلسلة كتب الكترونيّة توزع مجّانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

مدير السلسلة

م.فيصل العش

Faycalelleuch@gmail.com

المراجعة اللغويّة : الأستاذان فيصل الرباعي وعلي عبيد

الأفكار والمواقف الواردة في هذا الكتاب لا يتحمّل مسؤوليتها إلاّ صاحبها

كتاب الإصلاح العدد 26
المؤلف: الهادي بريك
الكتاب: التدين الإسلامي (قواعده ـ أولوياته ـ آفاته)
تاريخ الصدور : ماي 2020
ر.د.م.ك: 4 - 106 - 59 - 9938 - 978
نسخة الكترونية - يحجّر نسخها ورقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله

الإهداء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم

أهدي هذا الكتاب الى معلم البشرية الخير سيدي محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم

الذي علمنا بفضل الله دينا عنوانه اليسر والرّحمة وقوامه العلم ...

أهدي هذا الكتاب الى والديّ - عليهما الرّحمة - اذ صبرا على تعليمي وأنا طفل يافع

في أحوال يستبدّ بها الفقر وأسأل ولي النعمة سبحانه أن يفيء بأجر هذه الكلمات إليهما ...

أهدي هذا الكتاب الى كلّ من علّمني يوما حرفًا أو قيمة من رجال التّعليم والدّعوة

على امتداد عقود ستّة كاملة ...

أهدي هذا الكتاب الى الصّديق فيصل العش الذي نسج الله بيني وبينه من وشائج الصّداقة

ولما نلتقي، إذ أخذ على عاتقه إخراج عدد من كُتُبي تزيينا وطباعة ونشرا

على منبره الكبير (الإصلاح) سائلًا الله سبحانه أن يكتبه عنده من أهل الجهاد الإلكتروني ...

والله اسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم

وأن ينفع به وأن يقيض له من يسد منه خلة ...

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الإهداء 6

الفهرس 7

المقدمة..... 8

المحور الأوّل : مقدمات عامة 11

المحور الثاني : من قواعد التّديّن الأرشد 27

المحور الثالث : بعض أولويّات التّديّن الأرشد 84

المحور الرّابع : من آفات التّديّن 110

المحور الخامس : نحو تديّن أصيل معاصر 144

المحور السادس : دليل جامع لتدين راشد 182

كلمة أخيرة 193

المقدّمة

التدين غريزة إنسانية جبلّية عنوانها أن الإنسان يشعر بالحاجة إلى ربّ يعبده أو إله يفرّ إليه في النائبات بمثل ما يشعر بالحاجة إلى الأكل أو الشرب أو اللذة. وبذلك قال علماء الإنتروبولوجيا أن المجتمعات البشرية لم تخل قطّ من أثر للتدين ولا من أثر لإقتراف الفنون. ومن ذا فإن دعوى الإلحاد أو اللادينية نشاز في الحياة البشرية. وعادة ما يرزح مدعي الإلحاد تحت إحدى كآبتين : إما كآبة مركبات الإستعلاء والغرور والكبر أو كآبة مركبات النقص فهو يسارع إلى ملء ذلك الفراغ النفسي الرهيب. التدين فطرة راسخة ذلك أن الإنسان عندما يداهمه الموت المحقق غرقا في البحر أو خرّا من السماء أو نحوا من ذلك فإنه لا يتردد طرفة عين واحدة في التوجه إلى الله وحده بالدعاء الضارع وبذا يغدو التدين بالإسلام ـ الذي هو دين الفطرة ـ غريزة مثل غريزة الحرية. وهل الإسلام غير أشواق التحرر الرابضة في أعماق الفطرة؟. كيف لا ونحن نعيش مناخات صحوات دينية تتلوها صحوات كلما بلي جيل أو غفلت أجيال هرعت إلى التدين خلوف في إثر خلوف؟ الأمة الإسلامية مدينة بحياتها وجودا حتى وهي في ذيل القافلة على إمتداد قرون سحيقة لاظية إلى نشوء الصحوات الدينية وهي باسقة من باسقات الوعد الإلهي الذي لا يتخلف أنه سبحانه يبعث لهذه الأمة

على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. الخوف إذن ليس على التدين أن ينتهي في حياة البشرية ولكن الخوف مزدوج : فهو خوف على ذلك التدين أن يكون ضالا مثل كل حالة غير إسلامية أو أن يكون ذلك التدين مشوها مشوشا مزيفا. ذلك أن التدين سلاح ذو حدين. فهو إمّا تدين وفيّ لأصوله داعيا إلى التحرر والعدل والكرامة والعمارة أو تدين خؤون كفور نافث لداعيات العبودية لغير الله وحده سبحانه أو لداعيات إمتهان كرامة الإنسان ذلك الكائن المقدس الذي قدسه القدوس نفسه سبحانه أو لداعيات تخريب الأرض وما فيها ظلما وعدوانا وزورا وفسادا. ومن ذا وجب الوعي بالعلاقة الجدلية المركبة بين الدين وبين التدين إذ الدين هو الصورة المثلى التي إن توفرت على مبتدإ فليس لها نهاية في حين أن التدين هو الجهد البشري الذي يحوّل تلك الصورة المثلى إلى حقيقة واقعة وينزلها فوق الأرض تنزيلا ومن ذا يغشى التدين بالضرورة بالتوفيق حينا وبالإخفاق حينا آخر. المهمة الأصلية لهذا الكراس هي محاولة للمساهمة في ترشيد التدين وتنقيته وتهذيبه وتشذيبه فالإنسان متدين بالطبيعة والضرورة في الأعم الأغلب والعبرة به وليس بالشذوذ ذلك أن التدين الإسلامي دون غيره مسؤول عن إحتلاب مقاصد الدين العظمى لإصلاح الحياة بها والإنسان هو قطب الرحى في العملية الدينية والإصلاحية معا فإذا آل الأمر بنا يوما إلى أن تكون منزلات التدين الإسلامي في الإتجاه المعاكس لتلك المقاصد العظمى فإنه لا مناص من أن نلبس كل أردية الخزي والندامة خوفا وجوعا .

أجترحت في هذا الكراس لمعالجة هذا الموضوع منهجا ينطلق من إستجماع لبعض قواعد التدين الإسلامي إستنباطا لها من مظانها في الكتاب العزيز والسنة النبوية ثم يعرّج على أولويات التدين وهي فصول في ترشيد التدين

وتحريره مما علق به إنحطاطا سالفا أو تقليدا ببغاويا خالفا كما يعالج ذلك المنهج المجترح آفات التدين ولكل شيء آفاته إذ العملية التدينية تجارة ككل تجارة وهي إستمثار لرساميل فكرية وعقدية وروحية في الكون الفسيح فلا مناص من إحكام العمل نشدانا للربح وتجنبا للخسارة كما عالجت بشيء من الإقتصاد مشكلات التدين عند التنزيل والتنفيذ وجمعت العناوين الكبرى للتدين المعاصر.

وفي خاتمة هذا الكراس يلفى القارئ دليلا جامعا للتدين الإسلامي الأرشد جمعت فيه قواعد وآدابا للتدين بعضها غنما ممن قرأت لهم وتعلمت عنهم وبعضها مما إنقدح في ذهني.كما وطأت لهذا الكراس بمجموعة من المقدمات التي تحيل إلى جوهر الموضوع . أسأل الله ولي النعمة العظمى سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم أوّلا وأن يكتب لي فيه السداد والرشاد والحكمة وفصل الخطاب وأن ينفع به الناس وأن يقيض له من يرتقي به إلى الحسنى وناصحا لي بما وقف عليه فيه مما لا يناسب المقام

المحور الأوّل
مقدمات عامة

المقدمة الأولى
تحرير المشكلة

المشكلة التي يتصدى لها هذا الكراس هي إحصاء بعض القواعد المهمة والأولويات المتعلقة بالتدين الإسلامي الذي قال فيه سبحانه في أكثر من موضع «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ»[1] إذ أن حركة التدين تتعرض دوما إلى شغبات ولم يكن ذلك بدعا في الإسلام دون غيره ولا في العصور المتأخرة دون غيرها إذ ظهرت بعض الفهوم غير المستقيمة حتى ومحمد عليه الصلاة والسلام بين ظهراني المسلمين يعلمهم دينهم ودنياهم. ومن ذلك أن نفرا ممن أرسلهم في مهمة ما أشاروا على أميرهم إلحاحا بغير علم بالإغتسال بدل التيمم فمات فغضب عليهم عليه الصلاة والسلام غضبا شديدا ودعا عليهم بمرارة قائلا:«قتلوه قتلهم الله»[2] ولم يسبق له أن دعا على مؤمن قط. وأمثلة أخرى لعل حادثة صلاة العصر في الطريق إلى بني قريظة واحدة منها.

وفي العهد الراشدي المهدي الأوّل ظهرت تدينات تنكبت الإستقامة المأمورة قليلا أو كثيرا وخير مثال على ذلك فرقة الخوارج الذين خرجوا

---

[1] سورة هود- الآية 112

[2] رواه البخاري وأحمد وغيرهما عن إبن عباس

على الإمام علي عليه الرضوان لسوء فهم في آية سورة يوسف «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّــه»[3] وظلت مثل تلك التنكبات والشغبات ذات الأصل الفكري تترى في الأمة فكلما قويت الأمة صفا واحدا بتنوعها ورأسها الواحد وحريتها الفكرية إستوعبت تلك التعدديات فغدت نشازا معزولا وكلما ضعفت الأمة إحتلت تلك النشازات لها أمكنة تتوسع بفعل الإنحطاط أو الغزوات الخارجية الفكرية أو العسكرية.

في زماننا هذا وهو زمن ضعف الأمة إنداحت تلك النشازات التدينية فمن تدين سلفي مغشوش يقدس التجربة التاريخية ويجمد على الصور والأشكال والأسماء وينبذ فريضة الإجتهاد وعزيمة التجديد إلى تدين صوفي مزيف لا يقتصر شرّه على تقديم الخلاص الفردي فرارا إلى كهوف التجاهل واللامبالاة بل يمتد أثره السيء إلى مظاهرة أعداء الإسلام في بعض الأحيان والمناطق. ومن تدين علماني لبرالي يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرم المحكمات ويحكي تدينا مسيحيا غابرا يحصر الدين في العلاقة بين المعبود وعبده إلى تدين شيعي نشأ إجتهاديا مختلفا في البداية نشأة مشروعة ثم ما لبث لملابسات سياسية وتاريخية أن إستحال طائفية سياسية همها الثارات التاريخية وليس الإصلاح. ومن تدين تقليدي ميت جامد مشكلته الجنّة وما ينشأ حولها وحول الغيب من أساطير وخرافات إلى تدين يتدثر بأردية التجديد والإجتهاد والمراجعات ولكنه باطنا تقليد غربي مغرور وتدينات أخرى ناشئة هنا وهناك. النتيجة من كل ذلك هو تمزق الأمة في الدين الذي ما أمرنا فيه هو وحده دون غيره إلا بعدم التفرق

[3] سورة يوسف - الآية 40

لقوله سبحانه «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيه» [4]وذلك بسبب إنحسار ربما غير مسبوق في تاريخ الأمة العريق والثرّ للتدين الوسطي المعتدل المتوازن وهو الكفيل بنهضة الأمة. لهذه المشكلة أسباب قديمة وجديدة وغابرة وحاضرة وباطنة وظاهرة ومباشرة وغير مباشرة ولكن الإحاطة بها لمعالجتها قراءة متأنية يحتاج أسفارا من فوقها أسفار ولا شك أن المشكلة السياسية بمعنى إنخرام السقف السياسي الإسلامي الواحد سبب من أغنى الأسباب وأن التمزق الذي خلفه ذلك الإنخرام سبب مباشر كذلك عدا ما للغزوات الفكرية والهجمات الثقافية غير المتكافئة التي تتعرض لها الأمة منذ قرون وعقود من أكفال في ذلك.

لا يهتم هذا الكراس بمعالجة الأسباب وإستقرائها بقدر إهتمامه بمحاولة ترشيدية تقريبية في جمع بعض قواعد التدين وأولوياته وآفاته وما يتعلق به من قيم ومعان بحسب ما ورد في الكتاب العزيز والسنة الشريفة إذ هما مصدر التدين

---

[4] سورة الشورى - الأية 13

المقدمة الثانية
التدين سلم متنوع الدرجات ومختلف الأثمان

خير تمثيل للتدين هو أنه شجرة تتركب من مركبات مختلفة في القدر والحجم والأثر والسعر. جذر الشجرة في التدين هو الإعتقاد الصحيح وأمه توحيد الله سبحانه توحيدا صافيا لا يعكر صفوه مثقال حبة خردل أو أدنى من ذلك من شرك أي التقدم على درب معرفة الله سبحانه بمثل ما قدم هو نفسه في كتابه. تلك هي الضمانة الكبرى لتدين صحيح فإذا كان الجذر في الشجرة هو المسؤول عن حياتها وموتها وخضرتها ويبسها وريّها وعطشها فإن الإيمان (العقيدة بالتعبير الحادث) هو بمثل ذلك بالتمام والكمال. جذوع الشجرة في التدين هي ما أسماها عليه الصلاة والسلام مباني الإسلام في الحديث المتفق عليه«بني الإسلام على خمس»[5] وهي ما سميت في التراث والفقه بالأركان الخمسة. فهي أساس العمل الصالح الذي يؤكده القرآن الكريم في مئات المواضع أنه مفتاح الجنة

[5] عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» متفق عليه

والسعادة من بعد إيمان صحيح. فإذا كانت جذوع الشجرة تتغذى من الجذر وتتحمل هي بدورها الأغصان والأوراق والثمار فإن تلك المباني والأركان كمّا وكيفا وقلبا وقالبا وشكلا ومقصدا هي المسؤولة عن بقية الجسم المتدين فلا صلاح له إلا بحياتها وبموتها يموت قطعا. أغصان الشجرة وأوراقها وثمارها وظلالها في الدين هي العلاقات مع الإنسان أو الخلق في الحياة بدء بالأسرة من والدين وزوج أصولا وفروعا وأجنحة ومرورا بالدائرة الرحمية الأدنى فالأدنى ودائرة الجوار الأقرب فالأقرب كذلك نسبا وأرضا معا وإنتهاء بالعائلة البشرية والأسرة الإنسانية الواسعة الكبرى. ولكن بتقديم لا مناص منه للمحتاج والمقهور والمفتون حتى لو كان حيوانا أعجم أبكم بله أن يكون آدميا مكرما مقدسا بغض النظر عن كل الإعتبارات غير الإنسانية من مثل الدين والعرق والعنصر واللون واللسان وغيرها. تلك هي حلقات شجرة الإسلام الخمس : حلقة حق الله في العبادة وحلقة حق النفس في التزكية بالعبادة ولا مقصد للعبادات عدا التزكية والتطهير وحلقة القربى وحلقة الجوار وحلقة الإنسانية الواسعة وهي الحلقات المرتبة فيما أسماه العلماء بحق آية الحقوق العشرة أو الثمانية في سورة النساء«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[6]. بمثل أن أغصان الشجرة وثمارها وورقها وظلالها مرافق ينتفع بها الإنسان بسبب حياة جذرها أوّلا وجذوعها ثانيا فإن تلك الحلقات الثلاث الأخيرة تكون ثمرات لإيمان جذري راسخ ثابت ولعبادات مبنية جذعية تشد الشجرة كلها. ذلك هو خير مثال للتدين عندي ومن الأدلة عليه من

---

[6] سورة النساء – الآية 36

النقل الصحيح حديث جبريل المتواتر «بينما كنا جلوسا عند رسول الله عليه السلام حتى طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يعرفه منا أحد ولا يرى عليه أثر السفر حتى جلس إليه عليه الصلاة والسلام وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذية وقال له يا محمد أخبرني عن الإسلام..» إلى آخر الحديث[7] الذي يخبرنا فيه عليه الصلاة والسلام أن التدين مستويات ثلاثة هي الإيمان ذلك الجذر المؤسس الأول والإسلام ذلك الجذع الحامل الصانع للفضائل والخيرات والإحسان الذي يشبه الثمرات في الشجرة. ومن الأدلة كذلك حديث معاذ كما سماه بعضهم إذ سأل هذا محمدا عليه الصلاة والسلام أن يدله على عمل يقربه من الجنة ويباعد بينه وبين النار فطفق يصف له الطريق ومعالمه التي كثفها عليه الصلاة والسلام في الإيمان والعبادة أصلا آصلا وجذعا جاذعا وما يحصنهما من تطوعات وتنفلات. وفي الأثناء أغدق عليه بوجبة غذائية فكرية عظمى سماها «رأس الأمرالإسلام وعموده الصلاة وذورة سنامه الجهاد»[8] في إشارة إلى أن التدين درجات مختلفة وأسعار متنوعة وأثمان متعددة وليس كومة تبن يتيه فيها كل شيء في كل شيء. ثم تدرج به إلى إحدى أكبر الثمرات وهي اللسان ويقاس عليه اليوم القلم والكلمة بكل صورها من فنون وتجمعات وتواصلات. وأدلة أخرى كثيرة تساعد على حسن فقه السلم الإسلامي تدينا صحيحا نتعرض لبعضها إن شاء الله في ثنايا هذ الكراس منها على سبيل الذكر والإقتضاب أن أي عمل صالح

---

[7] أخرجه مسلم عن عمر إبن الخطاب وهو مثبت بالأربعين النووية

[8] أخرجه الترمذي عن معاذ إبن جبل وهو مثبت كذلك بالأربعين النووية

أجره يضاعف عشر مرات كما ورد ذلك مرات في الكتاب العزيز في حين أن الإنفاق في سبيل الله سبحانه يتضاعف أجره سبعمائة ضعف كما ورد ذلك في آخر سورة الزهراء الأولى العظمى (البقرة) وأمثلة أخرى في السنة الصحيحة تؤكد أن الأعمال صالحة أو سيئة لا تحمل السعر نفسه ولا تجزى بالثمن ذاته. وهو ما يعبر عنه بسنة التفاضل في الشريعة ولذلك جاءت الشريعة مرتبة لسلم الفضائل بين فرائض وواجبات ومستحبات ورغائب ومباحات ولسلم الرذائل بين كبائر عظمى هي أكبر الذنب وكبائر دونها وفواحش وسيئات ولمم

المقدمة الثالثة
رأس الفقه : فهم المقصد الأسنى للتدين

ممّا بوّأ الإسلام مقبولية ممتدة وعالية عبر الزمان والمكان سواء إستهدفته الهجومات أو أخطأته أو قويت أمته أو ضعفت أنه دين المعقولية الذي لا يصدم العقول ولا يفاجئ الفهوم بل يلبي فيها داعيات الفطرة ونداءات الغريزة ويوقظ فيها إشرئبابات الجبلّة من جهة وينسجم دعاؤه مع قوانين الكون وغاديات السنن والنواميس من جهة أخرى. وذلك بخلاف الدين الذي حرف مثل المسيحية واليهودية وغيرها.

تلك هي نقطة القوة العظمى في هذا الدين بما يجعله يتأبى عن الموت أو الوفاة بل يظل حتى في أعسر الأيام خامدا رابضا يعاود إشتعاله عند أول هبة. ومن ذلك أنه الدين الوحيد الذي يرتد إليه الفلاسفة والعقلاء والكبراء ذهنا وعقلا ومعرفة وعلما في كل زمان وفي كل مكان وذلك في الأيام نفسها التي يهاجم فيها الإسلام أنه دين اللامعقول والخرافة والأسطورة والماضي والرجعية ومعاداة الحقوق الإنسانية وغير ذلك مما تشنف به الآذان في هذه العقود الكاسحة. لم يفت ذلك الفقهاء والعلماء الذين أسسوا لعلوم أصول الفقه وعلوم مقاصد الشريعة. ومن أجود ما قيل هنا هو ما قاله أحد أكبر الأوتاد التي قام عليها التراث وهو عبد الرحمان إبن خلدون الذي

قال عن علم أصول الفقه أنه منطق الإسلام.

الإسلام عقيدة وشريعة يخضع لمنطق وحسن قالة فيفيء إليه العاقل عندما يدرسه وتزول دونه الحواجز المخوّفة وعلامات الإرهاب والتشويه. ولذلك فإن أكثر ما نأتيه نحن اليوم من إثم هو تركنا الناس يسمعون عنا دون أن نبادر إلى أن نتحدث نحن عن أنفسنا وعن ديننا وشتان بين من يسمع منك ومن يسمع عنك.

من يقرأ الكتاب العزيز يلفى مواضع كثف فيها الوحي المقصد الأسنى لنزول الدين وإنشاء التدين ومنها قوله سبحانه في سورة الأعراف مبينا رسالة الإسلام وكلمة نبيه عليه السلام «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»[9] وفي موضع آخر حدد تلك الرسالة الإسلامية بقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» [10] وفي موضع ثالث قال في المعنى ذاته «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ» [11] وفي موضع آخر وفي القيمة ذاتها أي قيمة العدل والقسط قال «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»[12] وقال في موضع آخر في سورة الحديد «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»[13] وقال في موضع آخر مكثفا رسالة الهداية

---

[9] سورة الأعراف - الآية 157

[10] سورة المائدة - الآية 8

[11] سورة النساء - الآية 135

[12] سورة النساء -الآية 58

[13] سورة الحديد - الآية 25

الدينية في عمل واحد هو عمل التفكر والتدبر والتأمل ونبذ التقليد والإمعية والقرودية والببغاوية والعمى العقلي «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» [14] ومواضع أخرى قد نعيد إلتقاطها في ثنايا هذا الكراس ومن الحديث النبوي الشريف قوله عليه الصلاة والسلام «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[15] وغير ذلك من المواضع المكثفة التي تفقه الإنسان بالرسالة العامة للإسلام وترسم مقصده الأسنى ليظل التدين أمرا معقولا مفهوما معللا مصلحيا منفعيا يسير إتيانه ويسير بثه ويسير عمارة الدنيا به. في كلمة أشد كثافة وأكثر إختصارا وربما بتعبير معاصر يمكن القول بإطمئنان شديد أن المقصد الأسنى لرسالة الإسلام هو تحرير الإنسان بغض النظر عن كل الإعتبارات الهامشية اللصيقة به بغير كسب منه من مثل العنصر واللون والعرق واللسان وهو تحرير مادي ومعنوي معا. وهو تحرير عقلي بادئ ذي بدء إذ أن الإنسان مركبة تقاد بالعقل وليست الجوارح من لسان وقلم ويد ورجل عدا جنودا مجندة تأتمر بأمر العقل وتنتهي بنهيه. ذلك هو المقصد الأسنى ذاته الذي عبر عنه الصحابي ربعي إبن عامر في حضرة الملك الفارسي إذ قال له: «نحن قوم إبتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». وهي القيم ذاتها التي كثّفها الدكتور الملكاوي في كتيب صغير الحجم بعنوان «منظومة القيم الإسلامية»[16] وقد إستوحاها من الشيخ الدكتور طه جابر العلواني عليه

[14] سورة سبأ - الآية 46

[15] أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة

[16] كتاب منظومة القيم الإسلامية للملكاوي

الرحمة. وهي منظومة قيمية ترسم رسالة الإسلام ومقاصده العليا في كلمات ثلاث لا رابع لها إلا تفصيلا : قيمة العبادة وقيمة الزكاة عقلا وقلبا معا وقيمة العمارة للكون بالعدل .

وللإمام القرضاوي كلمات جميلات في رسم رسالة الإسلام إذ يقول أن الإسلام «عقيدة جوهرها التوحيد وعبادة جوهرها الإخلاص ومعاملة جوهرها الصدق وخلق جوهره الرحمة وتشريع جوهره العدل وعمل جوهره الإتقان وأدب جوهره الذوق وعلاقة جوهرها الأخوة وحضارة جوهرها التوازن»[17] . وللشيخ الدكتور مصطفى الزرقا عليه الرحمة كلمات جميلات كذلك يقول فيهن أن أهداف الإسلام ثلاثة هي تحريرالعقل البشري من رق التقليد والخرافات وإصلاح الفرد نفسيا وخلقيا وإصلاح المجتمع والحياة[18].

وبذلك ترجح بلا أي شغب ولا تردد أن رسالة الإسلام عنوانها تحرير الإنسان المكرم بالعقل. كيف لا والله نفسه سبحانه يعلن تكريمه الإنسان بسبب آدميته وليس بأي سبب آخر إلا بسبب أنه المخلوق الوحيد الذي نفخ فيه سبحانه من روحه «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» [19]؟

---

[17] كتاب الدكتور مصطفى الزرقا بعنوان : المدخل الفقهي العام

[18] الدكتوريوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد

[19] سورة الإسراء آية 70

المقدمة الرابعة
التدين مركب ثلاثي الأضلاع

من أنفع ما يغنمه طالب العلم والمعرفة أن الوجود كله كونا وخلقا وسننا مزدوج التركيب ليس لأن الوحي الكريم أخبرنا بذلك في قوله المتكرر مرات «وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ»[20] فحسب ولكن لأن معالجة الحياة وخاصة بالدين الذي يغذيها ويهديها ويؤنسنها توحي بذلك الإزدواج وتلك التعددية. العالم بذلك يعالج الحياة بمرونة أكثر وخبرة أغزر وحكمة أكبر ومن تنكب مناط العلم كله أي العلم بقانون الإختلاف فقد تنكب ذاته وخسر نفسه قبل أن يخسر أي شيء آخر. ولذلك أخبرنا الوحي أن العالم بسنة التنوع أوّلا من ناحية وبأصل ذلك ثانيا أي الله سبحانه هو العالم الأقرب إلى الله أي إلى الحق والحكمة والعدل. وذلك في فاصلة قرآنية ركزت العلم كله في معرفة الأصل الفاعل المدبر وقانون التعدد المطرد الذي لا يتخلف إذ قال فيها سبحانه «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

[20] سورة الذاريات – الآية 49

وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» [21].

والتدين الذي هو تحويل النظرية إلى واقع ملموس لا يند عن ذلك ولا يشذ فهو نسيج مركب مزدوج متعدد الأبعاد فهو ضلع ذو أبعاد ثلاثة هي : الدين نفسه بما هو نصوص وأدلة ونقول من جهة ومعالجة العقل لها فهما وفقها وتصورا من جهة ثانية ومحلها من التنزيل الواقعي وممكناته وموانعه من جهة ثالثة. ذلك هو معنى أن التدين ليس طريقا أحادي الإتجاه إنما هو مسلك فكري وعملي يتركب من النص بالتعبير الفقهي ومن معالجة العقل للنص ومن تنزيل العقل لذلك النص على أرض الواقع. أي فقه الدين وفقه العقل وفقه المحل بكثافة أشد. وما نشأت الإنحرافات سواء من التدين الصوفي أو السلفي أو العلماني اللبرالي أو التقليدي الأسطوري الخرافي أو الشيعي الطائفي أو غيرها مما كان وما سيكون سوى لعدم الفقه بذلك التركيب الذي إختصره الوحي الكريم بالجمع بين الكتاب والميزان في أكثر من موضع منه. منها سورة الشورى ومنها سورة الحديد ومنها سورة الرحمان ليؤكد أن القرآن الكريم وحده لا يكفي لتأسيس عمارة عابدة زاكية وأن الميزان نفسه لا يكفي لذلك كذلك وأن الكفاية لا تتم إلا بإجتماعهما معا فلا قرآن بلا ميزان ولا ميزان بلا قرآن

[21] سورة فاطر – الآية 28

المقدمة الخامسة
أي أثر للتاريخ في سلامة التدين؟

لمعرفة قيمة التاريخ تسديدا للتدين وترشيدا للعبادة ما على المتدين إلا أن يستقرئ الهندسة القرآنية الشاملة في بوصلتها العامة ليلفى بيسر أن القصة في القرآن الكريم إحتلت الثلث منه بل أزيد سيما إذا أضفنا إليها المثل وهو منها. معنى ذلك هو أن التدين الذي يريده القرآن الكريم من الإنسان هو تدين يتوفر على مرآة خلفية عاكسة. وأفضل تمثيل لذلك عندي هو أن المتدين مثل سائق العربة الذي كلما إعتمد على المرآة الخلفية العاكسة لما يجري خلفه أن يصدم أحدا أو يصطدم بشيء كان سيره آمنا سالما محفوظا. ومثل ذلك المتدين الذي يعدّ القصة في القرآن الكريم (والقصة هي التاريخ الماضي) هي المرآة الخلفية العاكسة فهي تضيء له معالجات دارسة ماضية غابرة بعضها محسن وبعضها مسيء.

الرسالة القرآنية من خلال إمتلائه بالقصة أي بالتركيز على الماضي قوامها أن التاريخ وجبة دسمة لا بد منها للسائر الجديد إذ هو يعرض تدينات سالفة ويستنبط منها العبر والدورس وبذلك يكون المتدين الجديد على بينة من أمره فليس هو من دشن الأرض بالعبادة ولن يكون هو آخر من يفعل ذلك. إنما هي أجيال من بعد أجيال تترى وتدول والجيل الأحكم

سيرا هو من يدرس سالفة سلفه ليعتبر. وبذلك صدق القائل أن التاريخ هو مرآة البشرية وأن الأمة التي لا تاريخ لها هي أمة فقدت الذاكرة ومحلها محل الإنسان الذي فقد ذاكرته أي المشافي العقلية. وحتى تكون الأمة الإسلامية أزكى الأمة وأحكمها سيرا بالعلم والقوة والحديد والصف وحق الإختلاف والإصلاح فإن دستورها الأعظم أي القرآن الكريم حمل إليها خلاصة الأمم السالفة والمعالجات السابقة على طبق من ورد وفضة كما يقولون. المتدين حتى على مستواه الفردي يفيد من التاريخ إفادات كبيرة أن يستبد به الغرور أو يفترسه الوهم أو يعبث به النسيان والزهد فيكون مشهودا عليه لا شاهدا على عصره. فإذا كان ذا مال فهو بين سليمان عليه السلام وقارون وإذا كان ذا جاه وقوة فهو بين ذي القرنين وفرعون وإذا كان ذا علم ومعرفة فهو بين الخضر صاحب موسى عليهما السلام و(بلعم) الذي قال عنه ربه «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»[22] ناهيك أن الله سبحانه حدد لتالي القرآن الكريم المقصد الأسنى من إحالته على التاريخ الماضي وذلك عندما قال في آخر سورة يوسف عليه السلام «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ»[23].ومن ذا فإن المتدين الواعي بالتاريخ والعالم بقصصه والفقيه بسننه يكون تدينه أرشد من المتدين الغرّ عفوا من العلم بالماضي

[22] سورة الأعراف – الآية 175

[23]سورة يوسف – الآية 111

المحور الثاني
من قواعد التدين الأرشد

القاعدة الأولى
التدين : مبتدأ ومختتم

أ) المبتدأ

المبتدأ الكفيل بتدين صحيح هو قوله عليه السّلام فيما عدّ من جمهرة علماء الإسلام مترددا بين ثلث العبادة وثلثيها «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» [24] أما عجز الحديث فهو تمثيل لا ينسحب على الهجرة إلا بحسبانها مثلا. والعبرة دوما في الأحاديث المركبة من أصل وتمثيل هو بالجذر كقوله عليه السلام في الحديث الآخر «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» [25] إذ أن أمر الذبح والقتل أمثلة فحسب

ب) لازمات المبتدأ

• اللازم الأول: الإخلاص

ذلك أنّ الله سبحانه لا يكلفنا فوق وسعنا ولن يتكلل عمل البشرية يوما بالفلاح كله والسداد كله حتى لو كانت على قلب رجل برّ واحد. ولكن

---

[24] متفق عليه عن إبن عمر

[25] أخرجه مسلم عن شداد إبن أوس

المعول عليه في التدين هو الإخلاص وهو شعور قلبي يجد المرء برده في جوفه. الإخلاص إخلاصان : إخلاص في الإيمان والعبادة وهذا هو المقصود الأوّل إذ أن الإيمان الصحيح لا يتم إلا به وهو أشد مبيد ضد الشرك محبط العمل وأسرع مضاد حيوي ضد الكفر بكل صنوفة ردة كان أم نفاقا أكبر أم غير ذلك. إخلاص العبادة لله سبحانه هو المنجي من العذاب يوم القيامة بلا منازع ولا خلاف. وإخلاص العمل مطلوب كذلك ولكن لأنه يغشى الناس لا محالة رياء فإن الخلوص منه بالكلية قد لا يدرك دوما و الله سبحانه يحصننا منه بإخلاص النية لله وحده سبحانه في مبتدإ العمل. وخير من خصّب هذا وأثراه بالشرح هو الإمام الغزالي المتوفي في 505 هجرية في سفره المقدم لمشروعه الإحيائي الكبير أي إحياء علوم الدين. وقد علمنا عليه السلام دعاء يذهب الشرك في العبادة : اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه. صلة الإخلاص ـ أول لازمات المبتدإ ـ بالنية هو أن الإخلاص عمل قلبي والنية محلها القلب فهما في مصنع واحد ومن مشكاة واحدة وعلقة واحدة

* اللازم الثاني : القلب هو الربّان

عبادة القلب أولى من عبادة الجارحة وهو الذي صاغه العلماء بصياغات كثيرة تجتمع كلها حول أن طاعات القلب أكثر أجرا من طاعات الجوارح ومعاصيه أشنع وزرا من معاصيها. ذلك أن القلب هو ربان سفينة الإنسان والإنسان مركب سائر أو قارب سائح أو كوكب سيار «يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ»[26] ومن أمثلة ذلك أن الحسد ـ

[26] سورة الإنشقاق آية 6

وهو معصية قلبية لا معصية جارحة ـ أشد على المرء وزرا من معصية الجارحة لقوله عليه السلام «إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[27] وضده مثالا في الإتجاه المعاكس هو الحب لقوله لصحابي عليه السلام شكاه قلة عبادته عدا حبه لله ولرسوله عليه السلام «أنت مع من أحببت»[28].

الحسد معصية قلبية والحب طاعة قلبية ولا علاقة لكليهما بالجارحة إذ قد يوهم الحاسد محسوده بأنه أحب الناس إليه ومن الأدلة على ذلك ظاهرة النفاق في المدينة إذ أنهم لا يعرفون ويعاملون أنهم مسلمون ولكن ما أضمرت قلوبهم كان كفيلا بأن يكونوا ليس في النار فحسب بل في الدرك الأسفل منها. من الأمثلة على ذلك كذلك إخباره عليه السلام عمّن سار في قافلة لهدم الكعبة فلما كانوا بمكان كذا خسف بأولهم وآخرهم فقالت الأم العظيمة عائشة عليها الرضوان : كيف يخسف بهم وفيهم سوقتهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ـ أي ومعهم سوقتهم الذين ليسوا معهم فيما همّوا به ـ ثم يبعثون على نياتهم»[29]. هو دليل آخر من أدلة لا تحصى نقلية وعقلية على أن القلب هو ربان قارب المرء وبذا يثاب سكان القارب بحسنة ربانهم ويعاقبون بسيئته وما ذلك سوى بسبب أنه هو من يتحمل القيادة جزاء وفاقا إذ الجوارح جنود مجندة مأمورة لا آمرة

❁ اللازم الثالث : صناعة الأمل

الأمل صناعة قلبية خالصة فهو مقدود من نطفة الإخلاص إذ يكون

---

[27] أخرجه أبوداوود عن أبي هريرة

[28] أخرجه مسلم وأحمد عن أنس إبن مالك

[29] متفق عليه عن عائشة

المرء ممتلئا أملا بقدر إمتلاء جوفه إخلاصا ويكون قنوطا بقدر خلوه من ذلك.

الأمل ثمرة من ثمرات الإيمان الخالص والقلب الحي والطوية الحسنة ذلك أن الأمل ـ وهو صناعة قلبية خالصة ـ ينبجس من قلب قال فيه عليه السلام «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[30] ولذلك يظل المؤمن يصارع الأهواء ويدافع العواصف كالسنبلة المثقلة ينحني حينا ويشمخ حينا آخر بما في فؤاده من نبض وحياة وأمل. والكلمة الفصل هنا هي أن للشاة ذئب مفترس هو الذئب المعروف وللإنسان ذئب مثله هو ذئب اليأس والقنوط ومرتعه الخصب هو الغفلة. قال عليه السلام في حديث قدسي نافع لكل متدين «أنا عند ظن عبدي بي»[31] أي أن القبول من لدنه سبحانه مشروط بالظن (وهو الإعتقاد وليس الشك) وبذلك يكون الإنسان هو الفاعل هنا فإن أحسن الإعتقاد في ربه أنه غفور رحيم فهو كذلك له وإن أساء الإعتقاد فيه أنه ليس كذلك فهو فعلا ليس كذلك له هو.

الأمل ثلاثي الأبعاد : أمل في الله أوّلا. وأمل في النفس ثانيا وهو الذي نسميه ثقة وطموحا وغير ذلك وهو لازم للفلاح والنجاح. وأمل في الإنسان أنه مثله يؤمن ويسلم ويفلح وينجح ولو لم يكن الأنبياء ممتلئين أملا في الناس من حولهم ما آمن على وجه الأرض إنسي. الفرق الأوحد بين المفلح والخاسر في الدين والدنيا معا هو الأمل أو اليأس

---

[30] متفق عليه عن النعمان إبن بشير

[31] الهامش الثامن : متفق عليه عن أبي هريرة

* اللازم الرابع : المختتم أخطر من المبتدإ

الخاتمة هي رابع اللازمات إذ للتدين متبدأ هو النية بلازماتها آنفة الذكر ومختتم قال فيه عليه السلام مثل ما قال في المبتدإ بالتمام والكمال «إنما الأعمال بالخواتيم»[32].وبذلك يتركب التدين من أصل هو القلب السليم ومن خاتم هو الثبات على ذلك حتى الممات. الصلة بينهما ليست حتمية إذ رأينا كم من إمرئ ظل بقلب مطموس ردحا من الزمن ثم آمن وحسنت خاتمته (خالد إبن الوليد مثلا وعكرمة إبن أبي جهل مثلا آخر وغيرهما مما لا يحصى) كما رأينا كم من إمرئ ظل بقلب سليم ثم ختم لنفسه شقيا وهم أهل الردة في كل زمان ومكان. الخاتمة معناها العملي هو الحرص على الثبات على الصراط المستقيم حتى النهاية إذ «يبعث المرء على ما مات عليه» [33] كما قال عليه السلام

* قبول العمل مشروط بشرطين

شرطان ذكرا في آخر آية من سورة الكهف لا مناص منهما لقبول العمل وهما صلاح العمل وصلاح الطوية «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [34] . صلاح العمل معناه الإتباع فيما فيه إتباع وهو الدين الموقوف أو السنة إذا وجدت فإن لم توجد فبما لا يعارضها إتجاها ومقصدا إذ أن كل عمل نافع للناس هو عمل صالح حتى لو لم تأت به سنة. أما صلاح الطوية فهو أن يبتغى بذلك وجه الله

---

[32] أخرجه البخاري عن سهل إبن سعد

[33] أخرجه مسلم عن جابر

[34] سورة الكهف – الآية 110

وحده سبحانه لا رياء لأن المرائي لا بد أن يكدي يوما بعد عطاء ولا بد أن يؤذي أصحاب الأيدي السفلى مهما صبر على ذلك ولأنه ينتهي بأن يعبّد الناس لصاحب اليد العليا وليس لله سبحانه. الرياء مضاد للصدق ومناف للإخلاص ولذلك فهو محبط للعمل

القاعدة الثانية
متعدي النفع أولى من لازمه

أصل هذه القاعدة مواضع كثيرة في الكتاب والسنة منها على سبيل الذكر لا الحصر حديث إبن عباس عليه الرضوان إذ قال للرجل الذي إستعجب منه خروجه من معتكفه لقضاء حاجته «أما إني سمعت بإذني هاتين صاحب هذا القبر يقول عليه السلام : من سعى في حاجة أخيه قضاها أم لم يقضها فهو خير له من إعتكاف في مسجدي هذا عشر سنين»[35].

هذا مثل بديع تخلف عنه المسلمون في أكثر العصور تخلفا شنيعا إذ أنه يبرز لنا حبر الأمة وليس أي رجل في عبادة إعتكاف وليس أي عبادة في مسجده عليه السلام وليس في أي مسجد وهو يتحرى ليلة القدر وليس أي ليلة في العشر الأواخر من رمضان وليس في أي شهر أو زمان ولم يمنعه كل ذلك أن يبادر عليه الرضوان بسؤال الأعرابي عمّا يعكر صفوه. فما إن علم بذلك حتى خرج معه في حاجته وهي ديون لزمت الرجل.

لم أجد في الوحي كله مثلا أبلغ من هذا في تقديم العمل متعدي النفع للناس على العمل لازم النفع لصاحبه حتى لو كان صاحبه هو من هو

---

[35] أورده المنذري في الترغيب وقال أخرجه الطبراني والحاكم وضعفه بعضهم

وكان العمل إعتكافا إبتغاء الفوز بليلة القدر في مسجد الصلاة فيه بألف صلاة. حزني البالغ هو أن هذا الضرب من الفقه مات مع أولئك بنسبة عالية جدا. أعلم العلماء بهذا الفقه اليوم لا يجرؤون على ما جرأ عليه حبر الأمة. العلماء الذين يحثون الناس اليوم على الإقتصار على حجة واحدة وعمرة واحدة وإنفاق ما يمكن إنفاقه في حجج أخرى وعمرات أخرى في ثغرات تحصر الأمة كمقاومة الإحتلال وبناء معاهد العلم والصرف على طلبته وعمل يغيث المعسرين ويحرر المساجين .. أولئك العلماء لا يجدون لكلامهم ذاك قبولا حسنا. لن أتردد كعادتي في القول أن الدين سلاح ذو حدين وأن من يتدين بلا علم أو بلا إلتزام بذلك العلم فإن تدينه يكون عليه وبالا وعلى غيره أشد نكالا. لم رتب سبحانه على عيادة المريض أكفالا من الأجر وفروضا من الثواب عظيمة؟ ألم يقل «أما إنك لو عدته ـ أي المريض ـ لوجدتني عنده؟» [36]أي ثواب يفوق أنك تجد الله ربك عند المريض؟ المعنى هو أن هذا العمل الصالح الذي تعدى نفعه للمريض وهو المحتاج إلى الأنس والإعتبار أكثر من غيره أجره أكبر وثوابه أغزر من التقرب إلى الله بالنوافل. مما يؤكد هذه القاعدة كذلك قوله عليه السلام: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا : بلى. قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[37] . المقصود هنا طبعا من قوله «الصلاة والصيام والصدقة» هو نوافلها وليس فرائضها إذ لا تسقط فريضة من صلاة أو صيام أو صدقة بإسم إصلاح ذات البين إلا في حالات إستثنائية

[36] أخرجه مسلم عن أبي هريرة

[37] أخرجه الترمذي وأبو داوود عن أبي الدرداء

جدا وفردية جدا ولكن المقصود هو أن إصلاح ذات البين (ما يحفر بين الناس أخاديد خصومة ومقاطعة فينصرم صفهم الواحد) أولى من نوافل تلك العبادات أي تقديم الفرض الموجوب على النافلة وهي قاعدة من قواعد التدين وأولوياته. مشكلتنا ليست نقص علم بل نقص إلتزام قد يكون بسبب شك في المعنى المراد. أكثر المتدينين يشيد العلاقة طيبة بينه وبين ربه ولا يفعل مثل ذلك بينه وبين الإنسان ويفسد تدينه ذاك بنقل منسوب إلى رابعة العدوية ـ والشخصية نفسها مشكوك في وجودها تاريخا ـ وهو قول لو صح أو صح لها فهو متروك ممقوت مكروه لأنه مخالف لتعاليم الوحي وهو أولى من تعاليم البشر «فيا ليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب» هذا كلام لا يحكم عليه الإسلام بغير الوضع والشطب والنكير حتى لو قاله الصديق نفسه وحاشاه فما بالك بمن هو دونه؟ ذاك تدين لا يعكس عندي عدا أن فقه حقوق الإنسان ذو حظ تعيس في تراثنا وتاريخنا ومخيالنا الجمعي فلا يقبل حق الله أداء حتى يؤدى حق عبده الإنسان أداء مثله

القاعدة الثالثة
أحب الأعمال أدومها وإن قلّ

أصل هذه القاعدة حديث نبوي قال فيه عليه السلام:«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»[38] ويؤيـــده حديث نبوي آخر قال فيه عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» [39] ومن تطبيقاته أن الصدقة الجارية أحب إلى الله وأذخر أجرا يوم القيامة من الصدقة العارية بسبب أن الأولى يظل نفعها يغدق على محالها أحقابا من الدهر بل ربما حتى يوم القيامة وصاحبها في قبره تتهاطل عليه شآبيب الرحمة هطول الغيث من بعد قنوط على أرض خاشعة ولذلك قال عليه السلام فيها «إذا مات إبن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له وصدقة جارية وعلم بثه في الصدور»[40] وكلها أعمال دائمة فلا نفع العلم ينقطع ولا الولد الصالح ولا الصدقة الجارية وفي كل خير دون ريب. لما كنت شابا يافعا قبل أزيد من أربعة عقود كانت لا تفوتني صلاة جماعة

---

[38] أخرجه البخاري عن عائشة

[39] أخرجه أحمد والبيهقي عن جابر وأنس

[40] أخرجه مسلم عن أبي هريرة

في المسجد وخاصة البردين ولا قيام ليل ولا صوم راتب متعاقب ولا تلاوة لا تفارق لساني ليل نهار ولا سنن ونوافل وطاعات أخرى فلما تقدمت بي السنون بخلت عن كثير من ذلك. ذاك هو حال الشباب دوما وكلما كان المردّ إلى الحد الأدنى المعلوم من الدين فلا بأس إن شاء الله ولكن الراشد الحصيف هو من يرتب منذ البداية له وردا من العمل يتحمله ولا يزيد عنه. الفكرة من هذه القاعدة هي أن الشيطان أعجز عن تدمير الثابت الدائم عند رسوخه وهو أقدر على المتحول يزيد وينقص وأن الشخصية تكون أكثر إعتدالا وتوازنا عندما تكون محتفظة بقدر كبير أو صغير من العمل أو العبادة. ولقد رأينا في شبابنا ونرى اليوم عشرات ومئات من الشباب الذين يكلفون أنفسهم ما لم يكلفهم به الشرع أو يغالون فيما كلفوا به كثيرا فلا يلبثون عليه عدا سنوات معدودات ثم تجرفهم تيارات سيئة كهروع إلى كهوف اللامبالاة واللامسؤولية نشدانا لخلاص فردي مستحيل أو فرارا إلى الغضب والعنف والقسوة والإكراه والقتل أو ردة إلى التسيب غير الملتزم بالحد الأدنى. من تأصيلات هذه القاعدة قوله سبحانه في سورة المزمل «عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه[41] ومعنى ذلك هو أن قيام الليل كان متاحا لما كنتم متفرغين في مكة للصبر والثبات والمقاومة السلبية أما اليوم فقد إحتوشتكم مطالب جديدة لا بد منها مثل طلب العيش و القتال صدا لعدوان فلا مناص من الفيء إلى الحد الأدنى

[41] سورة المزمل – الآية 20

القاعدة الرابعة
بين العيني والتكافلي علاقة تكامل

في الإسلام واجبات فردية سميت عينية لتعلقها بعين الإنسان وذاته من مثل الصلاة والصيام وبر الوالدين وغير ذلك مما لا ينوب فيه أحد أحدا في الأصل والعادة. وواجبات تكافلية تعاونية تضامنية سميت قديما كفائية بمعنى أن ثلة من الناس تنوب عن الأمة جمعاء قاطبة فيها من مثل بناء دور العبادة والمرافق العامة للبشرية سواء بنيات تحتية أو تعليمية أو صحية أو سكنية أو عسكرية أو غير ذلك. عدا أن مفهوم الواجب الكفائي شابه خلل في أثناء الطريق إذ أن الواجب الكفائي هو ما لا تتم مصلحة الأمة إلا به ولا ينقطع له الناس بالكلية لضرورة التنوع والتخصص. فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الكل ولكن الشطر المغفول عنه في القرون الأخيرة هو أن ذلك الواجب الكفائي إذا لم يقم به أحد من الأمة فطعنت مصلحتها وفسد أمرها في حقل ما من حقول الحياة فإن الأمة جمعاء قاطبة آثمة وإن كان الإثم هنا يقع على أهل الذكر في ذلك الحقل المغفول عنه.

أصل هذه القاعدة هو قوله سبحانه في آخر ما نزل من سورة التوبة «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ

لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»[42] والمعنى هو أنه لا يليق بهم أن ينفروا إلى الجهاد كافة وأن مشاغل الحياة كثيرة وأن الأمة بحاجة إلى كل ذلك تكافلا فلا بد من تخصصات بينهم وتنوعات لينفر هذا إلى العلم وذاك إلى الجهاد والثالث إلى الحكم والرابع إلى الزراعة وهكذا. ذلك أن الناس بعضهم لبعض وإن لم يشعروا خدم كما قال الشاعر الحكيم. ألا ترى أن الصحابة تخصصوا فذهب بعضهم إلى التفقه في الدين وذهب آخرون إلى التجارة من مثل عبد الرحمان إبن عوف وذهب آخرون إلى الجهاد من مثل خالد إبن الوليد وآخرون إلى الحكم والقيادة من مثل أبي بكر والفاروق وآخرون إلى القضاء من مثل الإمام علي وتخصص أبيّ في القراءة وأبو هريرة في الحفظ والتخزين.

وفي القرآن عروض لنماذج من الصالحين تخصصوا في الهندسة من مثل ذي القرنين الذي خصص علومه الهندسية لحماية المستضعفين والمقهورين من غير المسلمين من يأجوج ومأجوج وتخصص الخضر صاحب موسى عليهما السلام في فقه الموازنات والموافقات والترجيحات في أمثلة سفينة المساكين وجدار الغلامين. لا بد من علاقة تكامل بين الواجبين: الفردي العيني وهو حق النفس من زكاة بالسجود والركوع والصوم وغير ذلك والتكافلي الذي لا يوفيه حقه فرد ولا حتى ثلة أحيانا بل لا بد له من مجموعات وثلل من مثل القيام على ما يقيم العدل في الأمة ويحمي بيضتها ويجعلها للأمم هادية ولا يكون ذلك إلا بالتفوق قوة فكرية ومعرفية وعددية ومالية وعسكرية وقيمية وعمارة وذلك لا يكون

---

[42] سورة التوبة – الآية 122

عدا بالتكافل منا جميعا كل مما يليه عليه ولكن طغت علينا في القرون الأخيرة فكرة مسيحية تسللت في غفلة منا قوامها الخلاص الفردي ربما بأثر من إنتشار الفكر الصوفي. والعجيب أن من يقرأ القرآن الكريم مرة واحدة يلتقط بيسر أن كل الأوامر والنواهي وما عداها طرا لا ترد إلا بصيغة الجمع إذ نودينا زهاء تسعين مرة بالنداء الحبيب الرفيق «يا أيها الذين آمنوا» وبالنداء الجنسي «يا أيها الناس» زهاء خمس وعشرين مرة وبالنداء الأصلي «يا بني آدم» زهاء خمس مرات ومثل ذلك ينادى أهل الكتاب وغيرهم وما نودينا ولا كلفنا ولا نهينا ولو مرة واحدة بضمير المخاطب المفرد إلا أن يكون جنسا في مرتين «يا أيها الإنسان» ومثله نساء النبي. والحاصل من ذلك إقتضاء لا بد منه هو أننا مطالبون جميعا بالقيام على تلك النداءات التي تكون أحيانا تعبدية محضة وتكون أحيانا أخرى عمارة في الأرض. ألا يكفي ذلك دليلا ضافيا شافيا على أن الواجبين (الفردي والتكافلي) متداخلان متكافلان متضامنان متعاونان لا يمكن الفصل بينهما فكلما حل أوان أحدهما لبينا مجتمعين؟ أليس عجيبا أن ندعى حتى في التقوى والصيام وهي عبادات قلبية وفردية محضة جماعة؟ العيب كله هو في تقصيرنا في الأمر الذي لأجله هو فحسب نزل الكتاب العزيز وهو فضيلة التدبر وعزيمة النظر وإنما نقبل على الكتاب العزيز نتلوه نهما بغفلة فلا نغنم منه شيئا

القاعدة الخامسة
اليسر والبشر والواقعية رخصة وعزيمة

مازال كثير منا يعتقد أن الدعوة إلى اليسر تفلت وتسيب وإنقلاب على الدين أو أن اليسر يعني ترك الواجبات التي ثبت وجوبها ولو تدبروا أحاديثه الكثيرة عليه السلام في هذا الغرض لأمتلؤوا علما إذ قال عليه السلام وهو يبعث بصحابته إلى اليمن قضاة ومعلميـــن (معاذ وعلي مثلا): «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا» [43] ولما شكا بعض الناس معاذا أنه يطيل عليهم في الصلاة وهو يؤمهم أنّبه بلا تردد قائلا له «أفتان أنت يا معاذ» وظل يكررها في وجهه غضبا ثلاثا وقال لهم «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[44] وغير ذلك مما أثر عنه. وقبل ذلك فإن تالي القرآن الكريم يقرأ في سورة البقرة أن أكثر التوصيات باليسر وردت في عبادة هي عبادة الصيام حتى نسب ذلك إلى إرادته سبحانه وبذلك رسخ في الشريعة أنها شريعة يسر لا عسر وتخفيف لا إرهاق وتعنيت. حتى

---

[43] متفق عليه عن أبي بردة

[44] أخرجه البخاري عن أبي هريرة

عندما يتعلق الأمر بالغريزة الجنسية التي لا يحوم الواعظون حولها أنها من علامات ضعف الإمام أو قرف الواعظ إذ أباح عليه السلام للصحابة نكاح المتعة لسنوات طويلات وهم متزوجون عدا أنهم يخرجون لأمر ما ويتغيبون لأسابيع أو شهور وكل ذلك مراعاة لطبيعة هذا الدين وهي طبيعة مراعاة ما يسميه العبد الفقير إلى ربه تعالى وحده مخارج الطوارئ أي محال القصور من مرض وضعف وبعد وعنت وحرج ومشقات حتى قال عليه السلام عن ربه «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه» [45] ولكن كما أنف الذكر يتحرج المسلمون في العادة عن إتيان الرخص ظنا فاسدا منهم أنها ضعف يأباه الإيمان ولكن العجب العجاب هو أن أكثر أولئك لا يتمعر لهم وجه عند إنقضاض العدو على المقدسات وعندما يتعلق الأمر بما ورد في القاعدة السالفة (الكفائي أولى من العيني عند الحاجة) فلا يعدون اليوم إحتلال فلسطين معرة ولا يجد ذلك عندهم ذكرا ولا حركة تضامنية إلا قليلا ولكن يقيم الواحد منهم الدنيا ولا يقعدها لو إقترف هذا ما هو مكروه في المذهب الآخر أو لو تعلق الأمر بنافلة حتى سرت فينا هذه القالة البغيضة أن فلانا يقيم السنة ويقصدون بها شعرات الذقن ولا يقولون عن فلان أنه ترك العزيمة والفريضة عندما يترك الصلاة أو يخون أمته أو يركن إلى أعدائها أو يحلّ الجور محل القسط أو يعمل أسيافه وألسنته وأقلامه في الأعراض المصونة وغير ذلك مما أحدث في العقل المسلم المعاصر إضطرابا وتشويشا بحاجة ماسة إلى دعاة وعاة رعاة يعيدون المياه إلى مجاريها كما يقولون .

---

[45] أخرجه أحمد عن إبن عمر

في الشريعة مناطق للعزيمة كما أن فيها أخرى للرخصة ولكن أكثر المسلمين اليوم يتحرجون أيما حرج عندما يشير على أحدهم طبيب بإفطار رمضان تقديرا منه أن صحته لا تسمح بالصيام ولكن لا تلمس لذلك الحرج ركزا عندما يحرضهم الداعي على رص الصف الواحد تخففا من الإنتماءات المذهبية والعرقية واللونية والجهوية والفكرية التي خرّ بها السقف علينا فما أغنت عنا. الشريعة عزائمها في العقائد والأخلاق والعبادات والواجبات التكافلية التي بها تنهض الأمة وتنحفظ وتتأبى عن الأعداء وحقوق الإنسان أمّا رخصها فيما دون ذلك مما يأتيه الفرد من عبادات منفولة أو ما يدفعه عن نفسه في حالات السفر والمرض والقصور والخوف وغير ذلك. الشريعة إذن صاحبة عزيمة في التكافليات عامة وصاحبة رخصة في الفرديات عامة ولكن هذا الميزان إنقلب اليوم. بلغ اليسر في الشريعة أنه أباح سبحانه النطق بكلمة الكفر عند إطمئنان القلب بالإيمان وحدث ذلك فعلا مع الصحابة الذين فعلوا ذلك خوفا على حياتهم فقال لهم عليه السلام : «إن عادوا فعد» [46] أي إن عادوا إلى تعذيبك فعد إلى قول كلمة الكفر. عندما أقول هذا للناس أسأل نفسي والله : هل أن الناس يصدقون هذا؟ بل بلغت العزيمة في الشريعة أن الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك عوقبوا بأشد عقوبة إجتماعية وهي أنهم قوطعوا من النبي عليه السلام ومن كل الناس حتى من زوجاتهم بعد ذلك بأسابيع لمدة خمسين يوما كاملة لا يردّ عليهم سلام يفشونه. أنظر المثالين لتقارن الأمرين ولتعلم طبيعة هذه الشريعة أين تكون عزيمتها التي لا تسامح

---

[46] أخرجه الحاكم

فيها وأين تكون رخصتها التي لا حرج فيها.

ومن مظاهر اليسر الأخرى التي لا يقبلها الناس اليوم هي أن الله سحبانه أباح التجارة في الحج كما ورد في سورة البقرة «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ» [45] وسبب ذلك فكرة مسيحية تسللت إلينا مفادها أن الدين دين والدنيا دنيا ولا مجال للخلط بينهما. ومن ذلك كذلك أنه عليه السلام خفف الصلاة قراءة لما سمع بكاء صبي خوفا على أمه. ماذا لو وقع اليوم أن إماما يخطب من فوق المنبر فأبصر شيئا يريد إصلاحه وكان لا بد له منه هو ذاته فنزل من منبره وهو يخطب فقضى وطره وعاد إلى منبره؟ هل تظن أنه لا يرجم؟ لا أظن. وعندما أحدث الناس بما فعله عليه السلام أنه يظل ساجدا فوق العادة بسبب أن سبطيه أو أحدهما إتخذ ظهره مركبا أو أنه ينزل من منبره وهو يخطب ليحتضن أحد سبطيه وهو يتعثر في ثوبه ثم يعود .. عندما أحدث الناس بذلك يراودني السؤال نفسه والله : هل أن الناس يصدقون ما أقول أو أن صورة محمد عليه السلام هي هي قبل الرواية وبعدها؟ خلاصة هذا: التدين فينا مقلوب ومعطوبة درجاته

---

[47] سورة البقرة – الآية 198

القاعدة السادسة
اليقين والعمل أولى من الريب والجدل

قال عليه السلام «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقا» [48] وهو نهي عن الجدل عندما يكون فارغا إذ يكون موضوعه خلافيا يحتمل هذا وذاك أو يكون لا فائدة من ورائه كمن يجادل في قضايا غيبية ليس لنا منها إلا الأسماء كما ذكر حبر الأمة إبن عباس أو يكون إنتصارا للذات وليس بحثا عن الحقيقة. والحقيقة أن كثيرا من الشباب المتدين الحديث نجح الشيطان في حشره في هذه الزوايا المظلمة من الجدل الخبيث الذي لا يزيد الناس صدورهم إلا إغراء بعضها ببعض. النهي عن الجدل الفارغ حكمته إستلال ما من شأنه صدع الصف الإسلامي الواحد. إذ أنه ليس أغضب لله سبحانه من بعد الإشراك به من تصديع الصف الإسلامي الواحد ذلك أن العدو متربص على التخوم يرقب فرصة التفرق ليلج وقد تفرقنا وقد ولج. أصحاب الإتجاه التقليدي من الأمة الإسلامية اليوم يقضون أوقاتا ثمينة يتجادلون حول نسل الشيطان وقرنيه وعمل الجان وصرعه لهذه ونكاحه من تلك وحزمات من الأساطير والخرافات

---

[48] أخرجه أبو داود عن أبي أمامة

التي تصرم الدين صرما وتفر بأصحابها من مناطق العقلانية إلى أدغال الخرافة. وبمثل ذلك يفعل أصحاب الإتجاه السلفي عامة إذ يبددون جزء مهما من الحياة في الجدل حول مباحات وسنن ونوافل وصور وأشكال وأبنية وقبضات لحية وحول المرأة وزينتها وما يحل لها وما يحرم عليها وبتفصيلات دقيقة لم يأت بها شرع ولا سنة ولا عهدناها من أصحاب وقرون زاهرة شغلت نفسها بالعلم والجهاد ورص الصف وبث الدعوة وبناء الحكم الرشيد وغير ذلك من محكمات الكتاب العزيز. ومثلهم أصحاب الإتجاه الصوفي حول عدد التسبيحات إذ عثرت قبل أسابيع قليلة على صديق قديم حدثني أنه يقضي ليله ويومه ـ وهو صدوق ـ في تلاوة أوراد من الذكر لم أسمع ورب العزة الأعظم بواحدة منها في الذكر المأثور وسمى لي الكتاب الذي يتبعه والحقيقة أني لفرط ما أعرف من صدقه وإخلاصه وجهله معا وتعبؤه لما هو فيه تحيرت في أمري هل أرشده إلى الحق أم أدعه خوفا منه وعليه في الآن نفسه ثم توسلت إليه برصيد قديم من العلاقة الأخوية الصافية وألفيت فيه تجاوبا بسبب ثقة متبادلة ولكن عاجلني السفر البعيد فما قضيت وطري منه وما قضى.

الجدل علامة فراغ قطعا مقطوعا وما يورث الجدل حتى لو كان في قضية حق أبلج صبحها وأسفر نجمها عدا مضيعة للعمر أو إيغارا للصدور أو إنحشارا في قضايا تافهة أو ليست ذات موضوع عمد الشرع الحنيف نفسه إلى تأخيرها. ومن نجح الشيطان في تصريم سلم عبادته فما بناها بالمنهاج القرآني تقديما لما حقه التقديم وتأخيرا لما حقه التأخير وتصغيرا لما حقه التصغير وتكبيرا لما حقه التكبير فقد أغواه غواية ليست أدنى من غوايته الذين يستدرجهم للفواحش وكبائر الإثم. ومن أجمل ما دون العلامة إبن

القيم أن الشيطان عندما يعجز عن تكفير العبد أو حتى تفسيقه فإنه لا يتركه هملا بل يفسد عليه سلم عبادته ليكون التافه مقدما والعظيم مؤخرا وبذا يكون ثوابه يوم القيامة صغيرا وربما يحق لنا القول : قل لي ما هي إهتماماتك أقول لك من أنت.

القاعدة السابعة
باب التوبة مفتوح لكل عاص في كل زمان ومكان

لكم كان تفكير العلماء ثاقبا عندما قالوا بأن الشرك صنو اليأس وأن فجر الإيمان الصادق هو الأمل وغسقه البهيم هو القنوط حتى من النفس بله من الله الرحمان الرحيم. قرأت كلمة قبل شهور فحسب عن إبن مسعود عليه الرضوان أنه قال : «سيفاجئ الله سبحانه عباده يوم القيامة برحمة يطمع فيها إبليس نفسه». لم أعد مترددا بعد اليوم أن صاحب هذه القالة فقه رسالة الإسلام فقها لا مزيد عليه وأن صاحبها عرف الله سبحانه معرفة لا تسبقها معرفة.

من الأدلة على أن باب التوبة مفتوح في كل زمان وكل مكان ولكل عاص حتى لو بلغت معاصيه كما وكيفا عنان السماوات وتجاوزتها ما قصه لنا سبحانه عن الطغاة المجرمين الذين زجوا بالمؤمنين والمؤمنات في خندق ملؤوه نارا مستعرة لاظية ثم إستووا فوق أرائك يشربون ما لذ وطاب ويستمتعون بطهو النار للجلود الآدمية ومنهم رضيع أخبرنا عليه السلام أنه أحد الذين تكلموا في المهد. قال عنهم سبحانه في سورة البروج (ثم لم يتوبوا). ليس هناك آية تهزني مثل هذه وليس هناك آية تخبرني من ربي مثلها. يا الله ؟ حتى هؤلاء لو تابوا تتوب عليهم؟ أجل. ذلك هو الله لمن يريد

معرفته بعقله وليس بهواه الذي يصرفه عنه. صحيح أن هناك منطقة طغيان وجحود وقهر وظلم إذا وصلها الإنسان فإنه لا يتوب. لا يتوب هو ولو تاب لتاب الله عليه ولكنه لا يتوب هو فلا يتوب الله عليه. ولكن الأصح من ذلك هي أن قيمة توبة الله على عبده مهما فعل وصنع ثابتة راسخة قائمة ماضية مطردة لا تتخلف. ومن ذلك قوله عليه السلام«أتبع السيئة الحسنة تمحها» [49] وأدلة أخرى أكثر وأكثر ولكن أحاول لجم رغبة الإنبساط في هذا الكراس ما إستطعت

[49] أخرجه الترمذي عن معاذ

القاعدة الثامنة
كن مع الإنسان يكن رب الإنسان معك

يحرص كثير من الناس على تحسين العلاقة العمودية مع الله غافلين عن أن تلك العلاقة العمودية مع الله سبحانه لا تستقيم إلا بتحسين العلاقة الأفقية مع الإنسان. دليلي في ذلك نصوص كثيرة منها قوله عليه السلام في حديث طويل «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [50] وهي قاعدة من قواعد التدين صيغت على شكل قاعدة ولم تستنبط إستنباطا. كما قال عليه السلام في موضع آخر «الناس عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» [51] والحكمة من ذلك هو أن الإسلام يريد تزكية النفس البشرية التي لا تتزكى إلا بالتواضع وخدمة الناس والسعي في حاجاتهم وبذلك تعمر الأرض بقيم الخير والجمال والزينة والتكافل. فمن أراد أن يكون الله معه معية تسديد في السراء والضراء فما عليه سوى أن ينشد ذلك من بابه الأوحد وهو أن يكون هو نفسه في خدمة أخيه الإنسان بما يستطيع ولو كلمة حب حانية أو بسمة حارة. ومن ذلك أنه قص علينا عليه السلام من

---

[50] أخرجه مسلم عن أبي هريرة

[51] أخرجه البزار والطبراني عن أنس

بني إسرائيل مشهد عابد ظل يتعبد في ديره عقودا طويلة وذات يوم إذ هما الغيث وإخضرت الأض وإزينت عنّ له أن يخرج مروّحا عن نفسه فما إن فعل حتى عاجلته بغيّ وظلت تلح عليه حتى واقعها فندم وذهب يغسل حوبته في نهر بالقرب منه ومعه رغيفان وضعهما على حافة الشاطئ ولما كان في يمّ النهر جاء سائل فأشار إليه بيده أن خذ رغيفا من الرغيفين وبعد قليل أدركه الغرق فمات فغفر الله له سبحانه ما تقدم من ذنبه بسبب ذلك الرغيف الذي جاد به على ذلك المتسوّل. القصة في حديث من صحيح إبن حبان وقد ضعف الحديث الألباني وفائدتها العظمى ـ حتى لو ضعف الحديث فالمعنى تبوح به أدلة جزئية وكلية في الوحي الكريم بوحا ـ هي أن الله سبحانه يغفر الذنوب بسبب ما أسميته آنفا الفضل المتعدي أو الصالحات النافعة للناس إذ تلك هي العقبة الكأداء وقليل من يتقحمها أما غير ذلك من العبادات فقد لا يشقّ على كثير من الناس

القاعدة التاسعة
أزمنة مفضلة لا يفوتنك خيرها

شيّد الله سبحانه كونه وخلقه وإجتماع عباده على أسس التفاضل. التفاضل مقصده الأسنى التكامل وليس الإفتخار ومن ذلك أنه فضل زمانا على زمان إذ أخبرنا أن ربيعين في حياة المؤمن لا يفوتنه أجرهما وخيرهما مهما كانت الظروف إلا قهرا بالغا. الربيع الأول هو ربيع العشر الأواخر من رمضان المعظم بمناسبة ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. والربيع الثاني هو العشر الأوّل من ذي الحجة الحرام بمناسبة يوم عرفة الذي يغفر الله سبحانه لمن صامه ذنب عام مضى وآخر أتى.

لم أجد في الشريعة أفضل من هذين الزمنين تفضيلا لما ورد فيهما من الحديث الصحيح والمتفق عليه. والحكمة هي أن الله سبحانه يقلب الزمان

حتى يفيء الغالي ويلحق التالي ويصح المريض ويعود المسافر ويعلي من همته القاعد وبذلك تكون فرصة لكل إنسان في الدنيا أن يلتحق بأزمنة الفضل وكذلك من الحكمة إثارة التشويق عند الناس لأن الشريعة عملية تربوية تعليمية تشويقية فيها الترغيب بما فيها من ترهيب.

ومن الأزمنة كذلك في اليوم السّحر الأغلى الذي يكون الإستغفار فيه أغلى من الدنيا وما فيها «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ»[52] و«وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» [53] وأزمنة أخرى من مثل يوم الجمعة حيث لا يرد الدعاء وزمن إفطار الصائم والمسافر ودعوة المظلوم وأدبار السجود أي الصلاة وإدبار النجوم وهو وقت السحر نفسه وغير ذلك. فضل الزمان المذكور في الشريعة (كل يوم فضل سحره وقبل الشروق وقبل الغروب وكل أسبوع فضل جمعته وكل شهر ما يصومه فيه إذ دعوة الصائم لا ترد وكل عام فضل رمضان وعشره الأواخر وفضل ذي الحجة وعشره الأوّل والأشهر الحرم الأربعة) أولى من فضل المكان المذكور فيها وما ذلك سوى لأن الزمان يدركه الناس بالسوية ولا يدرك فضل المكان منهم إلا قليلا. ومن فضل المكان المذكور (الصلاة في البيت الحرام التي هي بمائة ألف صلاة وفي الحرم النبوي إذ هي بألف صلاة ومثل ذلك أو نصفه على إختلاف في الرواية في المسجد الأقصى والصلاة في المسجد وغير ذلك). فضل الزمان أولى لأنه بالسوية بين الناس ولكن فضل المكان وهو ثابت ليس بالسوية بينهم والمقصود من ذا هو التعرض لنفحات الرحمان سبحانه في أزمنة ظهر

---

[52] سورة آل عمران -الآية 17

[53] سورة الذاريات - الآية 18

فضلها إذ أن الدنيا مبناها التفاضل بين الناس وبين العبادات وبين الأزمنة وبين الأمكنة وغير ذلك وهو تفاضل أريد منه أي يدرك الناس ما فاتهم إعترافا من الشريعة بضعفهم ومظاهره الكثيرة .

القاعدة العاشرة
الإكراه لا إعتبار له

لو طلب مني إجتراح عنوان للإسلام لما ترددت أن أقول أن الإسلام هو دين الحرية التي هي ضد الإكراه ولا ينقضي عجبي من دين يبني حتى العلاقة بين العبد ومعبوده على قاعدة الحرية وليس على قاعدة الإكراه إذ أنه سبحانه وهب الإنسان حق الكفر بمثل ما وهبه حق الإيمان وهو الكلام المستخلص مباشرة من آية مكية في سورة مكية هي سورة الكهف والذي يتردد الوعاظ والخطباء والأئمة مليون مرة قبل أن ينطقوا به ولا إخالهم فاعلين. الكلمة هي : الله وهبني حق الكفر بمثل ما وهبني حق الإيمان. الآية معروفة وهي مكية في سورة مكية وهي الكهف «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» [54].

ليس هناك ما أشد صراحة من هذا إذ العادة في الوحي الكريم أن المشيئة تردّ دوما إليه وحده سبحانه فهو الذي يهدي من يشاء وهو الذي يضل من يشاء وهو الذي يفعل ما يشاء وذلك هو الأليق بالمعبود الواحد الأوحد الذي يقهر فوق عباده ولو لم يكن كذلك لما عبد ولكنه في الآن نفسه نسب

---

[54] سورة الكهف - الآية 29

المشيئة إلى عبده سبحانه وفي مواضع معروفة منها قوله سبحانه في سورة المدثر «لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ»[56] وقوله سبحانه في السورة ذاتها «فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ»[57]. هي كلمة مستلة من الأسئلة الخطيرة والكبيرة لعبدين يحبهما الله سبحانه إبراهيم خليله وموسى كليمه عليهما السلام. لم أجد حربا من الإسلام أشرس من حربه على الإكراه. ولذلك قال عليه السلام تأكيدا لذلك «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما إستكرهوا عليه»[58] ومن ذلك ما يحرج المسلمين عندما يظنون أن ظنونهم السيئة في حق فلان أو فلانة هي ذنوب يؤاخذون عليها مؤولين تأويلا سيئا قوله سبحانه في سورة الحجرات «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ»[59] والحق أن القرآن لا يفقه حق الفقه إلا إجتماعا بالحديث والسنة إذ قال عليه السلام مبينا هذا الظن أنه إكراه وأن الإنسان لا يؤاخذ على ما حدثته نفسه بشرط واحد لا خلاف عليه أبدا وهو ألاّ يحدث بذلك أحدا أبدا حتى يموت ولو إيماء بحركة جسد خفية. الظن إكراه نكره عليه ولا نملك منه شيئا وهو كالحب والكره. وهل يقرر المرء من يحب بعد جلسة مع نفسه أو من يكره؟ أبدا. هي إنفعالات عاطفية تلتقطها النفوس في أثناء المشهد مباشرة ولكن الإنسان من حيث وجوده المعنوي مجهول كما قال ألكسيس كاريل. الشرط المشروط هو ألاّ تحدث بذلك أحدا أبدا حتى تموت فإن فعلت فلا حرج عليك ولا تثريب وما ذلك سوى لأن الظن إكراه

---

[56] سورة المدثر – الآية 37

[57] سورة عبس – الآية 12

[58] أخرجه إبن ماجة عن إبن عباس

[59] سورة الحجرات – الآية 12

خفي ولذلك أمرنا بإجتناب كثيره وليس إجتناب كله ولذلك كذلك نزل قوله سبحانه «رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» [60] {30} وذلك بعد أن تحرج الصحابة من قوله السابق (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) [61] {31}. ولكن بالجمع بين الموضعين منه عليه السلام إستعاد الصحابة فرحتهم

[60] سورة البقرة – الآية 286

[61] سورة البقرة – الآية 284

القاعدة الحادية عشرة
خير تدين ما ضمن لنفسه تقاعدا مريحا

فكرة ضمان تقاعد مريح للإنسان العامل بعد بلوغه سنا محددة هي فكرة بشرية معاصرة ولكنها في الأصل فكرة إسلامية جاء بها عليه السلام الذي قال : «إذا مات إبن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له وصدقة جارية وعلم بثه في الصدور»[62]. والمعنى هو أن المؤمن الحصيف الرشيد الذي يعمل لغد قريبه وبعيده يشيد إستثمارات في الدنيا تظل تدر عليه الحسنات حتى بعد موته أي بعد إنقطاع عمله وهو ما سماه القرآن الكريم أثرا في سورة يس «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» [63] وزكاه هنا عليه السلام. هي ثلاثة إستثمارات على المؤمن الرشيد بناؤها في حياته وتشييدها قبل موته وهي الأعمال الوحيدة التي لا يموت أثرها بل يظل حيا والمقصود بها مجال الأسرة إذ أن الولد يكون ثمرة إمرأة ونكاح وأسرة وتربية. ومجال الصدقات الجارية لا العارية على فضل هذه كذلك. ومجال العلوم والمعارف في كل حقل ومهارة بلا أي تفاضل.

---

[62] سبق تخريجه

[63] سورة يس – الآية 12

الإنسان إذن سعره وهو في قبره يكون بسعر ما قدم في حياته في الإستثمار العائلي الأسري التربوي وفي الإستثمار العلمي المعرفي وفي الإستثمار المالي الإقتصادي وما عداها عاريات سرعان ما يذهب أثرها ولعمري فإن التاجر يحرص على تلازم بين عارياته التي لا بد منها للحياة الدينا وبين جارياته التي لا يذهب أجرها ولا نفعها ولا ثمرها. ذلك هو التقاعد الإسلامي الحقيقي لمن يتدين تدينا صحيحا.

هذا يحيلنا تحليلا إلى فكرة هي أسّ من أسّ القضاء وهي أن الجزاء من جنس العمل ذلك أن العامل المتدين بعقل تجاري يثاب يوم القيامة بمثل ما كان تفكيره حصيفا رشيدا أي إنه إستغل حياته لبناء مستثمرات يدوم عطاؤها ويكثر رخاؤها وهي التي حددها عليه السلام تحديدا فمن فكر في عاقبته وأمّن له تقاعدا مريحا في حياة البرزخ وبعده سواء بسواء فإنه يشيد تلك الإستثمارات في الحقول الثلاثة العظمى التي تظل البشرية عالة عليها عقودا أو قرونا وهي : إستمرار النسل الذي هو إرادة الله سبحانه والنسل الصالح المؤهل للعمارة هو من تلقى من البيت في سنيه الأولى تربية صالحة وعبر عن ذلك بقوله (ولد صالح) والولد لسانا ودينا يشمل الذكر والأنثى سواء بسواء أن يرتد بعضنا إلى الجاهلية العربية الأولى زاعما أنه مسلم مؤمن. والإستثمار الثاني هو المضاربات المالية والمشاريع الإقتصادية التي تمكن صاحبها من إدخار ما تيسر له لآخرته أي ببناء الأوقاف والأحباس في شتى الحقول والمجالات وهو ما يجعل من الأمة أمة قوية مهابة وللبشرية خيرات تتفيأ ظلالها وهو ما عبر عنه بقوله (صدقة جارية) وهي كل مرفق إنساني يسعد الناس حتى لو كانوا غير مسلمين وكانت تلك المرافق دنيوية لا دينية بالتعبير الأدنى إلى الخطاب الكنسي البغيض في ديننا.

والإستثمار الثالث هو المضاربات العلمية والمقاولات المعرفية والمشاريع الإختراعية والإكتشافية في شتى الحقول والعلوم والمعارف والتخصصات والمهارات وهو ما يجعل الأمة أمة علم ومعرفة وبحث ودراسة وإجتهاد وتجديد وإختراع وإكتشاف وبما يحقق للبشرية التقدم والنهضة وهو ما عبر عنه بقوله (علم بثه في الصدور). وعبر بالصدور لأنه ليس هناك كتابة في تلك الأيام والعلم يشمل كل علم نافع للبشرية ككل مرفق نافع لها في الصدقة الجارية. معنى ذلك أن الإسلام يطلب من المتدين الحصيف الرشيد أن يعيش للناس حتى بعد موته وليس من بعد ذلك إيثار يمكن الحديث عنه. فهو يوفر لنفسه تقاعدا آمنا مريحا ومستقبلا سعيدا من جهة وهو يؤمّن للبشرية من بعده من علومه ومعارفه أو من أمواله ومضارباته أو من نسله وأهله ما به يسعدون من جهة أخرى. ذلك ثوابه من جنس عمله فكما حيي للناس يثاب كثيرا

القاعدة الثانية عشرة
فقه الإيمان هو فقه الحياة

قبلت الأمة مصطلح العقيدة قبولا حسنا ولكنه لا يلبي ما يريده الله منا في الحياة ولذلك إختار كلمة الإيمان ولكن لا مشاحة في المصطلح كما قال الأقدمون. كلمتان هنا تشكلان هذه القاعدة

أ) الكلمة الأولى

للإيمان حقيقة وأركان ومكانة. حقيقة الإيمان هي ما عبر عنها عليه السلام إذ سأل الصحابة: «هل أنتم مؤمنون؟» [64] فترددوا عدا الفاروق الذي أجاب بكلمات نالت رضى الحبيب عليه السلام إذ قال : نحن مؤمنون والدليل على دعوانا هي أننا نشكر في السراء ونصبر في الضراء ونؤمن بالقضاء. أكثر المسلمين يخلطون بين هذه الحقيقة وبين أركان الإيمان. ولا شك في أن العاقل الحصيف يميز بين حقيقة الشيء وأركانه. الأركان الستة المعروفة في حديث جبريل المعروف لا خلاف عليها ولكنها أبنية تشد الحقيقة ولو ظلت باهتة لتنكبت الحقيقة. حقيقة الإيمان هي إذن آثاره

[64] رواه إبن عباس وصححه المحدث العراقي

في النفس أي شكرانا وصبرا وإيمانا وإحتسابا في النائبات ولذلك لم يبادر الوحي كله قرآنا وسنة ولو مرة واحدة بتعريف الإيمان أو حدّه وإنما ظل دوما يشير إلى ثماره ذلك أن الحديث حول ماهية الإيمان جدل عقيم لا يأتي بخير إذ المقصود آثاره وثماره. مكانة الإيمان في الدين وفي الحياة هي بكلمة واحدة مكانة الجذر من الشجرة. فكما أن جذر الشجرة مسؤول على حياتها وموتها معا فهو صانع خضرة أغصانها ووارفة ظلالها وطيب طعامها فإن الإيمان مسؤول هو كذلك عن التدين والحياة فلا يستقيم تدين ولا تستقيم حياة إلا بإستقامة ذلك الإيمان.

كثير من الشباب المتدين حديثا يضيع أوقاتا ثمينة من حياته في الجدل الفارغ والعقيم حول فروع الإيمان وهي كثيرة جاءت بها بعض الآيات وجاءت ببعضها الآخر بعض الأحاديث وذلك من مثل نزول عيسى وموته أو وفاته ونبوة هذا أو غير نبوته ممن لم تثبت لهم نبوة والمهدي المنتظر. ومن ذا نشأت فرق وجماعات متناحرة بسبب تلك المشاحنات التي لا تقتضي ذلك مما نعي به على علم الكلام جملة وتفصيلا وربما على العهد العباسي بأسره وكل ذلك تراث مات وإنقضى ويمكن أن نفيد منه ولكن لا يليق بنا أن نعود إليه كأنه شاخص اليوم فينا. الإيمان الصحيح المنجي من النار هو التصديق بأركانه الستة المعروفة وحمل النفس على تعميق تلك المعاني في النفس والحياة يوما من بعد يوم وما عدا ذلك تمحلات فارغة بل هي الجدل الذي نهينا عنه وإذا كان لا بد من ذلك فليكن بين المهتمين وفي جلسات مغلقة خاصة بهم إذ أن من حدث حديثا يكون على بعض الناس فتنة فهو فتان دون ريب. الإيمان يحكم به بعضنا لبعض بالظواهر أما السرائر فلا يعلمها إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ب) الكلمة الثانية

الإيمان كما جاء في الحديث النبوي جمعا له بعضه مع بعض يتركب من أمرين لا مناص منهما وهما : الطهور والصبر. إذ قال عليه السلام «الطهور شطر الإيمان» [65] وقال عليه السلام في موضع آخر «الصبر نصف الإيمان» [66] ولا أعلم أنه قال مثل ذلك في الإيمان فإذا جمعنا معادلة الإيمان ألفينا أن الإيمان نصفه طهارة ونصفه الآخر صبر. أما الصبر فقد ورد قوله سبحانه فيه في موضع واحد في الكتاب العزيز «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» [67] وبذلك تكفل هذا الموضع الوحيد في الكتاب كله بتعويض الإيمان بالصبر. وهل الإيمان غير صبر ومصابرة وإصطبار وتصبر على معاسر الدنيا؟ أما في شأن الطهور وهو هنا الطهور المادي فهو أن المؤمن لا بد أن يكون متطهرا في بدنه وثوبه ومكانه قدر الإمكان لأنه معرض دوما وعلى مدار الحياة للصلاة التي لا تكون إلا بالتطهر ولو حكما كما قال الفقهاء. ما يهمني هنا المعنى وهو أن الإيمان عندما أراد عليه السلام أن يبينه لنا ويكثفه في حياتنا فقد عمد إلى تحليته بالصبر وهذا مفهوم لأن الحياة كلها حتى لغير المسلم لا تكون سعيدة إلا بالصبر إذ هي دار عمل لا ثواب فيها وعمد كذلك إلى تحليته بالطهارة وبذلك يتلبس الإيمان بمادة الإنسان وبقلبه ويكتمل المشهد أي طهارة خارجية وصبرا داخليا وذلك هو الإيمان وذلك هو الإسلام فمن ضمن لنفسه ذاك فقد ضمن إيمانه بإذنه سبحانه

---

[65] أخرجه مسلم عن الحارث إبن عاصم

[66] أخرجه الطبراني عن عبد الله إبن مسعود

[67] سورة هود – الآية 11

القاعدة الثالثة عشر
العلم قبل العمل هو منهج حبر الأمة

هذه القاعدة من قواعد التدين هي من أوائل القواعد في الحقيقة وإذ أخرتها ذكرا هنا فإنما لقدرها ولينفسح لها المجال فتذكر بعض فروعها المهمة. أصل هذه القاعدة العظمى هو أن القرآن الكريم ـ وهو أصل هذه القواعد وهذا الكراس كله ـ ذكر الإيمان أوّلا دوما وأبدا ثم ثنى عليه بالعمل ولم يسبق العمل الإيمان ولو مرة واحدة وهل الإيمان عدا مجموعة من التصورات والأفكار العظمى والمعلومات الكبرى. بل الإيمان علم إذ قال سبحانه :«فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ» [68] ومما يؤكد هذه القاعدة كذلك قوله عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[69] وهو منهج حبر الأمة عبد الله إبن عباس عليهما الرضوان وهو القائل لما سئل عن سبب الفقه الغزير الذي حازه (إنما أوتيته بلسان سؤول وفؤاد عقول). فلم يتربع عليه الرضوان على عرش العلم ولم يتقلد ميدالية الفقه عدا بلسان كثير السؤال فهو سؤول مبالغة وحرصا فهو على سنة الخليل

[68] الهامش السابع والثلاثون : سورة محمد أية 19

[69] الهامش الثامن والثلاثون : عن أبي أمامة

إبراهيم الذي لم يتردد أن يسأل ربه السؤال الخطير والكبير إذ قال «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ»[70] وعلى سنة موسى الكليم عليه السلام الذي سأل السؤال الأخطر والأكبر والذي يعدّ عندنا نحن اليوم هرطقة وزندقة وسوء أدب في أدنى الأحوال فقال «رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ» [71] . تربع الحبر على ذلك العرش بسؤال مثل سؤال إبراهيم وموسى عليهما السؤال ثم بفؤاد عقول أي بمهجة تعقل ما يلقى إليها وقلب غربال ينتقي ما ينفذ إليه مما يبصر ويسمع ويخطر على باله أو يروى إليه حرصا على فؤاده أن تضره الأغذية الفاسدة من الأساطير والخرافات والعادات والتقاليد البالية مما ليس عليها سلطان ولا أمارة حتى لو طبقت الآفاق. ذلك يعني أن العلم يسبق العمل دوما فالعلم جذر مؤسس والعمل ثمرة أو ظل ظليل. والعلم أم ذات رحم مغداق معذاق والعمل ولد رضيع يترعرع ويشبّ. أخرت هذه القاعدة إذن لعلي أخصها بما لا بد منه لطالب العلم والمتدين عامة من علمه ومعرفته عسى أن يستقيم تدينه عملا إذ لا يستقيم ظل والعود أعوج ولا يستقيم تدين والتفكير سقيم

العلم بالمرجعية الدستورية للدين والتدين وحفظها

المقصود بهذا العلم هو أن يعلم المتدين أن الله قد حدد له مرجعية دستورية في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة فلا يليق به أن يرجع لغيرها كما أنه عليه أن يعلم تراتبية تلك المرجعية وعلاقاتها فلا يقدم هذا ويؤخر ذاك.

---

[70] الهامش التاسع والثلاثون : سورة البقرة آية 260

[71] الهامش الأربعون : سورة الأعراف آية 143

المرجعية الدستورية للمتدين حددها سبحانه في سورة النساء إذ قال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ» [72]. كما حدد مرجعية معالجة التنازع إذ قال في الاية نفسها «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) [73] ومعنى ذلك هو ما قاله عليه السلام لمعاذ وغيره لما بعثه إلى اليمن قاضيا وحاكما إذ قال له:«بم تقضي؟ فقال : بكتاب الله. فقال له . فإن لم تجد؟ قال : بسنة نبيه. قال : فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو. فقال عندها عليه السلام مبتهجا بهذا التلميذ النجيب إبتهاجه بالفاروق لما فقه الإيمان في حديث سابق : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله»[74]. لا خلاف على هذا نظريا عند كل مسلم ومسلمة ولكن الخلاف عليه هو عمليا إذ أنك لاف اليوم كثيرا من الشباب حديث التدين يرجع إلى غير هذا ليس رغبة عنه ولكن جهلا أو حبا للشيخ الفلاني أو للداعية العلاني وتأثرا بهذا الخطيب الآخر. بتلك التراتبية المسطرة أي أولوية الكتاب وهو حاكم على السنة نفسها وحاكم على الرأي والإجتهاد كله كذلك يكون ضبط الحياة فإذا تعرض المتدين إلى مسألة ليس فيها نص من كتاب أو سنة فالإجتهاد بمختلف مساربه المحددة في علم أصول الفقه تتكفل بذلك

[72] سورة النساء – الآية 59

[73] سورة النساء – الآية 59

[74] أخرجه الترمذي عن معاذ إبن جبل

العلم بالمستويات التشريعية الثلاثة

للتشريع مستويات ثلاثة في التنزيل والإعلام : مستوى إخباري يتكفل بالعقائد وما نحتاجه من علم الغيب والمعيار هنا هو معيار كفر أو إيمان ولا منزلة بين المنزلتين هنا. ومستوى إنشائي يتكفل بالعبادات في أصولها العظمى التي هي الهيكل العظمي للإسلام بمثل أن أركان الإيمان الستة هي الهيكل العظمي للإيمان. ومستوى إقراري أو تقريري لما عدا ذلك أي الحياة سواء بعاداتها وتقاليدها أو بمصالحها ومنافعها وغير ذلك. السؤال هو : ما هي الفائدة من العلم بهذا؟ الفائدة هي أنه عندما يتعلق الأمر بالإيمان فإن الإخبار الغيبي هو الكفيل بذلك فلا ترجع لأحد عدا الكتاب فهي هناك مبسوطة بما تحتاجه ولا زيادة عليها ولا نقصان. أما عندما يتعلق الأمر بالمنشآت فهي العبادات والأعمال التي لا بد منها لتحقيق الإسلام فلا زيادة عليها إلا نافلة منصوصا عليها بالسنة ولا نقصان منها إلا رخصا معروفة. أما عندما يتعلق الأمر بالحياة فيما عدا ذينك الحقلين فإن الإسلام يسلك مسالك النظر ليقرّ هذا إذا ظهر صلاحه أو عدله أو منفعته وينبذ ذاك إذا ظهر فساده أو جوره أو مفسدته إذ الأمر هنا ليس فيه نصوص من الوحي إلا قليلا جدا.

هذا العلم ربما يبدو الآن غير ذي جدوى ولكن عندما يترسخ المتدين في تدينه وربما يعالج أوضاعا معلومة فإنه يجد نفسه محتاجا لهذا العلم الذي يميز بين مستويات التشريع. هناك مستوى آخر من التشريع ربما لا نعالجه الآن خشية الإسهاب وهو العلم بمستوى التشريع هل هو للأمر أو هو للنهي أم هو لإرشاد غير ملزم أم هو للترغيب وليس لإيجاب أم هو لترهيب وليس لتحريم وهل هو خاص به هو مثلا عليه السلام ومن ذلك

العلم بمناسبات النزول وإخضاعها للقاعدة الذهبية الأصولية أن العبرة ليست بخصوص السبب بل بعموم اللفظ. هذا المستوى الآخر من التشريع مهم كذلك.

من المقصودات هنا بتأكيد مستوى الإقرار هو أن الشريعة الإسلامية ليست دبابة تدك ما يأتي أمامها دون تمييز بين غث وسمين وبين نافع وضار. ذلك أن الإسلام علمنا أن نستورد من الناس غير المسلمين حتى لو كانوا مشركين أبعد عنا من الكتابيين ما ثبت نفعه أو صلاحه في الدنيا أو نقرّ ذلك. ومن ذلك أنه أقر عليه السلام دية القاتل بمائة بعير في تلك الأيام وليس هذا الأصل التقديري شريعة إسلامية مبتدأة بل إستيراد من الشريعة العربية.

كما أقر عليه السلام إستخدام بعض الحضارات من مثل الفرس في تلك الأيام للخاتم الذي تختم به الكتب وتحملها البرد أي السفراء والمبعوثون والممثلون إذ إتخذ خاتما له يختم به كتبه. وأشياء أخرى كثيرة أقرها الإسلام وليست هي إسلامية منها في الصناعات العسكرية الخندق الذي يحول دون الخيل ودون المداهمات إذ هي في تلك الأيام مدرعات الناس وراجماتهم ودباباتهم وهي صناعة حربية فارسية فلا هي عربية ولا هي إسلامية. ذلك هو معنى أن المتدين الأرشد اليوم عليه أن يميز بين ما هو إخباري عقدي ليس له فيه الخيار فإما إيمان وإما كفر وبين ما هو إنشائي تعبدي فهو له مطيع أو عاص وبين ما هو تقريري يعالج بمقياس الصلاح والفساد والعدل والجور والحاجة وعدمها وليس بمعيار السنة أو البدعة أو الطاعة أو المعصية أو الكفر والإيمان. ومن الناس اليوم نفيد أشياء وأشياء نحن بأمس الحاجة إليها إذ سبقونا إليها ولو إعادة تطوير

سيما في أساليب الحكم ومحاسبة الدولة والتداول على السلطة والحفاظ على المال العام وحقوق المرأة وغير ذلك مما لا يتسع له هذا الكراس إذ أربي هو التمثيل للفكرة وليس الإسهاب في إستيراد الأمثلة من السنة والسيرة

العلم بمستويات الحكم الشرعي

مستويات الحكم الشرعي حددتها أوائل سورة آل عمران إذ قال فيها سبحانه «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» [75] ومعنى ذلك هو أن كل حكم شرعي في الإسلام وفي أي حقل كان لا بد إما أن يكون محكما أي غير قابل للمراجعة والإجتهاد إلا إجتهاد الفهم وتصحيحه وإجتهاد التكافل عليه وتحسينه وإما أن يكون متشابها أي يحتمل أكثر من معنى ودلالة وهو الأغلب في القرآن الكريم والسنة معا. هذا هو الذي عناه الفقهاء بقولهم أن الأحكام الشرعية كلها أربعة مستويات فهي إما قطعي الورود والدلالة معا وهذا يندر جدا وهو الأمر الذي يؤرق الشباب المتدين حديثا إذ لا يفقهون معنى تلك الندرة وإما قطعي الورود ولكنه ظني الدلالة وهذا في القرآن هو الأغلب لأن القرآن خطابه ظاهر كما يقول الأصوليون أي قليلا ما يكون محكما مفسرا وهذا يحتاج إلى فقه ووعي وعلم. وإما أن يكون ظني الورود ولكنه قطعي الدلالة وهذا في السنة النبوية وهنا تتضاعف المشكلة بمعناها الإيجابي. ذلك أن العمل حيال السنة لا يقتصر على فهم المراد بل يحتاج قبل ذلك إلى التثبت من صحة الحديث ودرجته وغير ذلك مما هو مبسوط في علم

---

[75] سورة آل عمران - الآية 7

الحديث. وإما أن يكون الحكم الشرعي ظني الورود والدلالة معا وهذا كثير وهو لا يشمل القرآن الكريم بل السنة. تلك هي مستويات الحكم بالتعبير الفقهي وهي رباعية كما تقدم ولكنها تنتظم في قسمين لا ثالث لهما بالتعبير القرآني فهي بالمحصلة إما محكمة أو متشابهة وقد حذرنا سبحانه من إتباع المتشابهات لأنها من عمل المنافقين الذين يريدون من خلالها إما تصريم الصف الإسلامي (إبتغاء الفتنة) أو تصريم المحكم نفسه وذلك بتحكيم المتشابه في المحكم. وعادة ما يتأتى هذا ويقع فيه الناس دون وعي من خلال تحكيم السنة في القرآن وهو حاكم لا محكوم ومتبوع لا تابع.

الفائدة من العلم بهذا هو الوقوف بقيومية ومسؤولية عند المحكم في كل حقل سواء كان عينيا أو تكافليا تكامليا وعدم الخوض فيه بالباطل وترك المتشابهات إما لأهل العلم في مجالسهم ولا حظر على أي مسلم أن يكون منهم بل من خيرتهم إن شاء بالتعلم وليس بالتمني أو تركها لأهل الجدل الفارغ

العلم بالمعايير الشرعية وحقولها

هذا العلم خلاصته أن سلم المعايير والمقاييس واحد ولكنه مختلف الدرجات. هو سلم يحوي زهاء ستة درجات . الحقل العقدي مقياسه الكفر والإيمان والحق والباطل وفي الآخرة الجنة والنار وهو الحقل الوحيد الذي لا يعرف درجات وسطى. الحقل التعبدي معياره الطاعة والمعصية ولذلك يتجنب العاقل التكفير هنا. هذا الحقل نفسه وخاصة في نوافله وحواشيه يحكم بمعيار آخر هو معيار السنة والبدعة ولكن بعلم وبصيرة

لأن أكثر الناس لا يعون أن البدعة محلها الدين الموقوف فحسب أي العقائد والعبادات وليس الحياة ولنا مع هذا رجع بعد قليل إن شاء الله. الحقل الأسري ومثله الحقل الغذائي والملابس وغير ذلك مما هو مشترك بين الخاص والعام ولكن غلبة الخاص فيه أشهر معياره الحلال والحرام وهو محدد إما بنصوص من الوحي أو بأقيسة معروفة لدى العلماء تشبيها وتنظيرا. الحقل المالي معياره العدل والجور فما كان عدلا فيها فهو مباح حلال حق إلا ما ورد فيه الإستثناء الشرعي ثابتا صارما لا يطاله الإحتمال فيبطل به الإستدلال وما كان منها جائرا فهو محرم.

الحقل السياسي العام بمختلف فروعه معياره المصلحة والمفسدة فما كانت مصلحته راجحة بحسب الإجتهاد وخاصة الجماعي فيه ومن أهل التخصص في كل مهارة فهو مباح حق بل مطلوب وما غلبت مفسدته فهو محرم باطل . تلك هي أهم المعايير الشرعية وحقولها. والمقصود هنا هو عدم تحكيم معيار في حقل غير حقله ولذلك لا يقال لمن لم يصم رمضان من دون إنكار مشروعيته أنه كافر إلا لقاض لأنه سلطة ولا يقال لإجراء سياسة مع عدو أو خصم أنه حرام أو كفر أو بدعة لأن المقياس هنا غير ذلك. وذلك هو المقصود أي سياسة كل حقل بمعياره الصحيح المناسب له وهو مثل أن الطبيب لا يسوس الأبدان بالكلاليب بل بالإبر والحقن ومثل كل صاحب مهنة عندما يسوس مهنته بأدواتها المناسبة.

عندما تعثر على من لا يؤمن بالله سبحانه متعذرا بأنه لا يرى الله أو لا يسمعه أو لا يلمسه فما عليك سوى أن تنقله إلى حقل آخر يليق بذلك وهو أن الإيمان بالله سبحانه وموقوفات الدين الغيبية لا تنتمي إلى المحسوسات والملموسات فيطلب لها أدوات الحس وآلات المس ولكنها تنتمي إلى حقل

العقليات فيطلب لها الوعي بالعقل واللمس بالفؤاد وليس بالبنان. هذا مستوى آخر من مستويات المعايير المزدوجة في الإسلام والمقاييس المتنوعة في شريعته بمعناها القرآني وليس الوضعي وهو مستوى فلسفي نوعا ما إذ أن حقول المعرفة إما أن تكون بمقياس المادة أو بمقياس الحس سمعا وبصرا وغير ذلك أو بمقياس العقل الذي سماه سبحانه الفؤاد ومن ذا فإنه على المتدين سواء في هذا الحقل المعرفي العميق أو في الحقل العملي الذي أنف الحديث فيه في أول هذه الفقرة أن يميز بين تلك الحقول وبين تلك المعايير فلا يستخدم معيارا إلا في حقله المناسب فإن لم يحسن ذلك التمييز فهو يطالب من الجاهل أو الأعمى أن يرى الله سبحانه بأم عينيه وهو لا يراه ولن يراه فيحرج المتدين ويظن أنه ملوم لأنه لم يستطع إقناع ذلك الأعمى بالله سبحانه. والحقيقة أنها مغالطة عنوانها إستخدام معيار مادي هو البصر هنا في غير حقله المناسب وحقل الإسلام هو حقل العقليات كما قال الباحثون الأوائل ولذلك قالوا كذلك : العقل مناط التكليف وبذلك كذلك فإن الإسلام يغري الإنسان في كل زمان وفي كل مكان بسبب معقوليته الراجحة فمن صمّ عن ذلك أو عمي عنه ومن إنقطع إلى الخرافات والأساطير فليس له من العقل حظ يسعه لأن يؤمن بالله سبحانه ثم يطيعه في شريعته

العلم بالسلم المقاصدي وأبعاده

سبق في هذا الكراس أن وقعت الإشارة مرات إلى ضرورة إعتبار المقصد من إنزال الدين والمقصد المراد من المتدين نفسه. ذلك أن الأعمال ليست مرادة لذاتها كما حقق ذلك علامة المقاصد الأكبر الإمام الشاطبي. فمن إهتم بالبعد المقاصدي وبدأ يميّز بين مستوياته فقد وضع يده على المضغة الصحيحة التي تمكنه من أداء تدين صحيح. أقصر الحديث هنا عن السلم

المقاصدي الثلاثي الذي إجترحه الإمام الغزالي [76] وهو السلم الذي لم يجرؤ أحد إلى اليوم على مراجعته من حيث هرمه الهيكلي العام ومستوياته الثلاثة. يقوم ذلك السلم المقاصدي على مراتب ثلاث هي : الكليات أو الضروريات التي لا قوام للحياة إلا بها من حفظ دين ونفس وعقل ومال وغير ذلك إذ أن تفاصيل هذه المرتبة الأولى وقع فيها الإجتهاد حديثا وهي قابلة لذلك. المرتبة الثانية من ذلك السلم هي مرتبة الحاجيات وهي أدنى من الضروريات وهي التي تقوم بدونها الحياة ولكن بحرج وعنت. والشريعة كما هو معلوم متجهة بقوة إلى وضع الحرج وعزل العنت أن يقوم حجر عثرة في وجه العمارة التي لأجلها خلقنا. المرتبة الثالثة الأخيرة هي مرتبة التحسينيات وهي التي تقوم بدونها الحياة ولكن بسماجة وعفو من الذوق السليم والجمال والزينة وما يجعل البضاعة الدينية والإنسان حاملها وتاجرها غير مرغوب فيه. قيمة هذا السلم هي قيمة علمية مهمة عنوانها أن المطالب الشرعية من الإنسان في الحياة ليست في مرتبة واحدة من ناحية وأن تلك المراتب تتكامل وتتكافل وتتضامن ولكنها لا تتقابل تقابل تضاد وتناف من ناحية أخرى. القيمة هنا هي تقديم الضروريات دوما على الحاجيات وتقديم هذه على التحسينيات وهو تقديم مباح بل مطلوب حتى لو ألغيت الحاجيات والتحسينيات لأجل حياة ضروري أو كلي بالتعبير الآخر. دعني مع كلمة مهمة هنا قوامها أن الضروريات الكلية ـ التي عدّت في الغابر والحاضر أصل الدين ـ لو أردنا تكثيفها في أصل واحد لن يكون ذلك الأصل سوى أن الإنسان هو الضرورة

---

[76] حجة الإسلام عليه الرحمة والرضوان المتوفي سنة 505 هجرية

القصوى والكلية العظمى المرادة من إنزال الدين وتفصيل التدين. ذلك أن كل مكونات هذه المرتبة الأولى هي في خدمة الإنسان فالدين لأجله ولأجل تحريره وإعتاقه وتكريمه والحياة لأجل إسعاده وإبتلائه وتأهيله للحياة التي نعتها سبحانه بالحيوان «وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» [77] والعقل لأجل تمييزه والمال لأجل أداء رسالة العمارة وغير ذلك مما قيل قديما عن تلك المركبات أو ما يمكن أن يفيء إليه الإجتهاد المعاصر.

السلم المقاصدي الشرعي ثلاثي الترتيب إذن هو في خدمة الإنسان ناهيك أنه حتى في المرتبة الضرورية الكلية منه تقدم حياة الإنسان أحيانا ـ وليس دوما ـ على المطلب الديني نفسه. تقدم الحياة على الدين عند الخوف على الحياة كما مرّ بنا قوله عليه السلام لبعض أصحابه (إن عادوا فعد) ويقدم الدين على الحياة فيما عرف قديما عند الإمام الغزالي نفسه صاحب هذا السلم المقاصدي الثلاثي بالتترس. أي لو تترس المحاربون بمسلمين حيلة منهم أن المقاتلين من إخوانهم المسلمين لا يقتلونهم وبذا يتقدم العدوّ فإن على المسلمين قتل أولئك المسلمين المتترس بهم. أملي من الباحثين أن يتوصلوا بلغة معاصرة إلى القول بأن السلم المقاصدي الشرعي في الإسلام مراده الإنسان في وجوهه كلها سواء كانت دينا أو حياة أو عقلا أو مالا أو عرضا أو فردا أو أسرة أو جماعة. ذلك هو الجمع المنطقي الذي أجده لمركبات ذلك السلم.

أختم هذه الفقرة بالنداء الشهير الذي أطلقه الإمام إبن عاشور وريث المدرسة الشاطبية في البحث المقاصدي والذي دعا فيه إلى إجتراح قواعد

---

[77] سورة العنكبوت - الآية 64

أصولية مقاصدية تضاهي القواعد الفقهية وتضارعها ولكن يبدو أن المنية وافته قبل إتمام حلمه ذاك. فهل يبزغ منا من يحقق هذا الحلم الكبير تحصينا لمدونتنا الأصولية فقها ومقاصد بترسانة من القواعد التي تنير سبيل المجتهدين والباحثين والدارسين إذ قال إبن خلدون أن علم أصول الفقه هو منطق الإسلام وربما لو مدّ الله في عمره لقال : إن علم المقاصد هو حكمة الإسلام.

هذه الفقرة تحيلنا إلى ما ورد سابقا ربما بإقتضاب من أنه لا تطبق شريعة ولا ينفذ حكم إسلامي مهما كان قطعي الورود والدلالة معا إلا من بعد توفير محله وإلاّ علق كما فعل الأصحاب كثيرا. وقبل مرحلة توفر المحل هناك مرحلة وسطى إسمها توفير المقصد أو العلة التي صاحبت ذلك الحكم حتى قال الأصوليون في إبداع عقلي غير مسبوق : يدور الحكم مع علته وجودا وعدما. أي لا ينفذ أي حكم إسلامي ولا شرعي إلا من بعد البحث عن علته ومقصده وتوفير محله وهذا كله طبعا مطبوعا في المعاملات بالتعبير القديم أي في المعقولات والمفهومات والمعللات والمقصدات وليس هو في الدائرة المغلقة أي دائرة العقائد والعبادات. من فقه المقصدية روحا تسري في الشريعة الإسلامية فقد فقه كثيرا ومن لم يشمّ الرائحة المقاصدية في تدينه فلا حظ له سيما إذا كان من أهل العلم والثقافة ولا حرج على الأميين ومن لم تتح لهم فرص العلم

العلم بمقامات التشريع والشرع

وقعت الإشارة آنفا ولو بإقتضاب إلى بعض مقامات التشريع إذ يكون أحيانا أمرا ونهيا وأحيانا قصة وتمثيلا وأحيانا ترغيبا وأخرى ترهيبا وأخرى جاريا جريان غلبة الحال وغير ذلك. ومثله مقام المشرع نفسه

والمقصود به هنا بحسب التعبير القديم محمد عليه السلام. كتب في هذا الأقدمون إشارات مقتضبة حتى جاء إبن عاشور في سفره المقاصدي الشهير وأفرده بصفحات قليلات حيث عدّ من تلك المقامات زهاء ثلاثة عشر مقاما ولكن هذا العلم ـ علم مقامات المشرع ـ مازال بكرا ينتظر إبداعا من الباحثين الجادين إذ أن كثيرا من الأخطاء سواء في الفهم أو التنزيل التي تصدر عنا هي بسبب عدم الإلمام الكافي بهذا العلم. وخلاصته أنه عليه السلام عندما يقول كلاما أو يصنع شيئا لا يكون في مقام النبوة التبليغية دوما وبالضرورة. ومن أمثلة ذلك أنه عندما نهى عليّا عليه الرضوان عن الزواج على فاطمة لا يفعل ذلك بمقام النبوة إذ أن ذلك يعدّ تناقضا مع صريح القرآن الكريم ولكنه فعل ذلك بمقام الولاية أو مقام الأبوة. وأمثلة أخرى كثيرة إذ يعدّ ما كتبه السياسي المغربي الدكتور سعد الدين العثماني في كتابه (تصرفات الرسول بمقام الولاية السياسة) من أنصع ما كتب في هذه الأيام في هذا العلم.

دعني مع مثال أو مثالين من مقامات المشرع : عندما قال عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه»[78] قال ذلك بمقام الولاية السياسية أو الحربية وعادة ما يكون هو عليه السلام متأبطا لهما معا إذ أنه لو قال ذلك بمقام البلاغ النبوي لكان في تضارب صارخ مع قوله سبحانه «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [79]. فهو أمر خاص بزمان ما ومكان ما. والمراد هنا أنه أراد أن يشجع المقاتلين على التقدم وأغراهم بالمال وهو إغراء طبيعي بل هو من صلب الإغراء الإسلامي الإنسان لمن يتدبر التشريع مليّا. ومثله

[78] رواه أبو قتادة الأنصاري وهو حديث صحيح

[79] سورة آل عمران – الآية 161

قوله عليه السلام «من أحيا أرضا مواتا فهي له»[80] فهذا كذلك قاله بمقام الإمامة السياسية إصلاحا زراعيا أو فلاحيا أو إستثمارا إقتصاديا ولا يمكن أن يكون هذا الحديث سنة يعمل بها كل مسلم ومسلمة في كل زمان ومكان. المطلوب هنا من المتدين أن يتفرس في القرآن الكريم مليّا ليدرك بعد جهد ونصب ما هو المقام التشريعي. إذ أن مقامات التشريع في الكتاب العزيز ليست في مستوى واحد وأن يتفرس مليّا كذلك في الحديث النبوي الشريف بعد أن تثبت صحته ليدرك بأي مقام يتصرف عليه السلام في ذلك الحديث أو ذلك الصنيع وبذلك لا ينزل الحديث إلا في منزله المناسب كما مرّ بنا منذ قليل ممّا حبّر هنا في مسألة المعايير الشرعية وتنزيلها على حقولها المناسبة

العلم بمخارج الطوارئ

يسمى هذا قديما الضرورات والحاجات رعاية لظروف الضعف بمختلف صورها مما يغشى الإنسان. ويطيب لي أن أسميها مخارج الطواري تشبيها لشريعة الإسلام ببناية ضخمة شاهقة سامقة جميلة مؤسسة على دراية علمية وتهيئة عمرانية معدة لحياة الناس ولكن مهندسها يتحسب لحدوث الطوارئ من مثل حريق مفاجئ أو غير ذلك مما قد يقع دون إحتساب فهو يؤمّن تلك البناية منذ البداية حفظا لأرواح الناس وممتلكاتهم بمخارج يستخدمها الناس عند نزول تلك الطوام غير المنظورة فرارا ونجاة. ذلك هو ما صنعته الشريعة بالتمام والكمال وأظن أن الإنسان (المهندس المعماري

---

[80] أخرجه الإمام أحمد عن جابر عليه الرضوان

الفطن) هو الذي إقتبس ذلك من الشريعة وليس العكس. ما يهمني هنا هو أن الشريعة أحاطت الناس بمخارج للطوارئ تنجد الناس الذين هم في حالة طوارئ وأحسن تمثيل لذلك ـ رغم أنه يندر أن تلفى من المنسوبين إلى الدين والدعوة والعلم من يشير إليه تحرجا أو تأثما ـ هو نكاح المتعة الذي أباحه عليه السلام على إمتداد سنوات طويلات للصحابة ـ وليس لغيرهم ـ وهم من هم عندما يكون بعضهم في حالة سفر قد تطول شهورا وليس سنوات بسبب جهاد أو لأي سبب آخر. أكثرهم يقصر كلامه هنا على أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغير ذلك. ولكن نكاح المتعة ثقيل على صدورهم خوفا من الناس وليس خوفا من رب الناس وربما تحرجا وتأثما أو إستحياء في غير محله ولعل بعضهم يخشى أن يرمى بالتشيع وهنا يمحتن العالم والداعية إذ عليه ألاّ يخشى الناس في دين الله الحق.

دعنا من هذا الآن. إذا كانت الشريعة قد وصلت في إنجاز مخارج للطوارئ إلى حد يستنكف عنه كثير منا قولا وتمثيلا أي نكاح المتعة فهل يبقى ما يعلق فينا من لوثات أن الإنسان ليس هو المعتبر الأول في هذا البناء؟ لم المكابرة؟ أليس هو خير مثال على واقعية الشريعة ورعاية مصلحة الإنسان وأنها في خدمته وليست هي ضريبة ثقيلة؟ همي هنا هو العلم من لدن المتدين بأن الشريعة وضعت لكل حالات ضعفه وهي كثيرة لا تحصى مخارج للطوارئ وواضعها هو الله نفسه وليس غيره وأن الأمر كما قال فيه عليه السلام «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» [81]. والقاعدة المحكمة هنا هي ما ورد في الكتاب العزيز مرات «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

[81] رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده وحسّنه الألباني

وُسْعَهَا» [82] و«لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا»[83]. العلم بهذه الهندسة التشريعية الجميلة الحكيمة والعلم بالمخارج نفسها وعدم التحرج من قبول رخصة الله سبحانه هو التدين الصحيح. مخارج الطوارئ بتعبير العبد الفقير إلى ربه وحده سبحانه تصيب الفرد بمثل ما تصيب الأمة والأمة اليوم في أزمنة ضعفها عندما لا تطبق الشريعة بالمعنى الذي يعنيه الذين لا يعلمون الشريعة فليست هي عاصية لربها سبحانه ولكن لأن الشريعة اليوم لو طبقت من لدن أكثر الدول العربية والإسلامية لأضحت نكالا يصب جامه على الفقراء والمعدمين وربما يشعر بكثير في هذا الأمر الذين يعيشون خارج البلاد الإسلامية الذين يحكمهم ما سمي في الحديث : فقه الأقليات أو فقه الطوارئ أو الفقه الإستثنائي أو الإنتقالي أو فقه المرحلة وأسماء أخرى والمسمى واحد وهو أن للطارئات وقعها الكبير فلا تطبق فيها بعض أحكام الإسلام ليس لعدم صلاحيتها ولكن لغياب محلها كغياب محل الصوم عند المسافر أو المريض أو الحائض أو غيرهم

العلم بمبتدإ الفقه أي اللسان العربي

لا بد من ملاحظة أوّلية هنا مفادها أن شرط اللسان العربي ليس لعامة المتدينين وخاصة من غير الناطقين باللسان العربي. من أكبر مضغ القوة في الإسلام أنه دين فوق كل الإعتبارات الممكنة لسانا وعنصرا وأصلا

---

[82] سورة البقرة - الآية 286

[83] سورة الطلاق - الآية 7

ولونا وغير ذلك وأنه متاح بين يدي الناس كلهم أجمعين بغض النظر عن ألسنتهم. ورب عربي قح إبن عربي قح لم يفقه من الشريعة شيئا يغنيه خيرا ورب أعجمي إبن إعجمي لا يفقه من اللسان العربي شيئا هو عند الله سبحانه من خير المتقين ومن الصديقين والشهداء والصالحين.

الكلام هنا موجه إلى من يتصدى المجالس والمنابر للتوجيه والتعليم والإرشاد والإفتاء ويتقدمها. هؤلاء جميعا لا مناص لهم من الإحاطة باللسان العربي إحاطة تخصص ومتابعة تعلّم. إذ أن الإسلام مفتاح تعليمه ـ وليس تعلمه ـ الأول هو اللسان العربي. ما هو عندي ثابت راسخ لا يتزحزح هو أن اللسان العربي شرط مشروط لمن يتصدى للناس تعليما وإفتاء وإرشادا وتوجيها ودعوة وغير ذلك. أما المتدين الذي لا يفعل ذلك سواء كان عربيا قحا أو أعجميا قحا فلا يوجه إليه هذا الكلام إلا إذا أراد إحتلال ذلك المنصب الكبير. علم أصول الفقه ـ مثلا ـ وهو منطق الإسلام بلسان إبن خلدون ألفت كتبه في السابق على أساس الأصول اللغوية اللسانية أوّلا ثم على أساس الأصول الشرعية الدينية ثانيا [84] وبذا يلتحم اللسان مع الشريعة ليؤدى المعنى ويتحقق المراد إلتحام الكتاب بالميزان كما مرّ بنا آنفا. ألا يكفيك أن الكتاب العزيز إفتخر بلسانه العربي في إحدى عشر موضعا منه؟ إذ هو قرآن عربي وحكم عربي ولسان عربي وهو بتلك العروبة ـ عروبة لسان لا عروبة عنصر ـ كان مبينا ولو لم يكن عربيا لما كان مبينا ميسرا للذكر لكل مدكر. هو بذلك اللسان تحدى العرب الأقحاح السلائق الأوائل. بل إنه علق عقله على لسانه إذ قال سبحانه في

[84] أنظر كتاب الفقيه والمتفقه مثلا للبغدادي

الآية الثانية من سورة يوسف عليه السلام : «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»[85]. أي لأجل عقلكم وتعليمكم وفقهكم جعلنا هذا القرآن بلسان عربي وبمفهوم المخالفة ـ آلية أصولية يعرفها طلبة العلم ـ فإنه لو كان غير عربي لما كان متاحا للعقل أي للفهم

العلم بقانون الأسباب

يحيل هذا إلى عقيدة القدر التي ضل فيها حتى في الغابر مسلمون. فمن قدرية نافية للقدر إلى جبرية نافية لحرية الإنسان وإرادته. ومن مرجئة تأكل حرمات الناس وأموالهم بإسم القدر الإلهي إلى تدينات مشطة في عقيدة القدر. وهي عقيدة يسيرة لا تحتاج تعسفا ولا تحكما ولكن لا أرب لي في الإنبساط هنا. المقصود هنا هو أن الله سبحانه رتب الثمرات بأسبابها ولم تستثن من ذلك القانون الإلهي الصارم حتى المعجزات إذ رأينا أن مريم البتول العذراء ـ وهي التي كتب الله عليها أن تحمل بلا ذكر مسها وأن تجد مخاض الوضع تحت شجرة ـ لم يعفها من بذل جهد إستمطارا لرطب جنيّ ييسر عليها وضعها. وكان يمكن أن يسقط عليها ذلك بلا جهد منها وهي في حالة ضعف بدني وخوف نفسي. لم كان ذلك يا ترى؟ لنتعلم نحن اليوم ألاّ شيء يولد بلا جهد حتى لو كانت معجزة فما بالك ونحن عفوا من المعجزات. مثلها في ذلك مثل الكليم موسى عليه السلام إذ لم يفتح الله له الأرض عيونا بلا سبب. بل أمر بأن يضرب بعصاه الحجر وقبل ذلك أمر هو نفسه بأن يضرب بعصاه البحر لينشق. كل ذلك لنتعلم نحن اليوم أن السبب من لدن الإنسان شرط مشروط في بلوغ المراد

[85] سورة يوسف - الآية 2

وهو شرط لم يعف منه حتى الأنبياء المؤيدون بالمعجزات الخارقة فكيف نعفى منه نحن؟ سوق هذا بين يدي المسلمين الذين لا يكفون عن الدعاء على الظالمين ولكنهم لا يحركون ساكنا ضدهم ولا إنتصارا للمقهورين ومثلهم الذين ينتظرون مهديا يملأ الأرض عدلا بعد أن ملأت جورا وهم قاعدون. أليس هذا هو التفكير الإسرائيلي التعيس البئيس الذي قال للنبي الكليم موسى بصفاقة ووقاحة أن «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»[86] يساق هذا لتصحيح التدين المغشوش الذي يرقب نصرا من رؤى منامية وأصحابها قاعدون أو من أدعية يحفظونها وأكثرها غير مأثور بل منكور من مثل قولهم «أضرب الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين» وأهلها لائذون بالأوراد لا تتمعر وجوههم لقهر ولا لسلب ولا لنهب. التدين الإسلامي الصحيح يكون بجمع الأسباب دون هوادة وبإحكام قدر الإمكان ثم بتوكل على الولي الوكيل سبحانه جنيا لأسباب روحية وبتكافل أسباب روحية وأسباب مادية ينصر سبحانه من يشاء إذا شاء وقتما يشاء أما دون ذلك فتدينات مغشوشة مزروة مزيفة

[86] سورة المائدة - الآية 24

المحور الثالث
بعض أولويات التدين الأرشد

أي حكمة في نشدان أولويات التدين؟
فقه مراتب الأعمال

هذا هو التعبير القديم لتعبيرنا المعاصر (الأولويات) ولا عبرة بإختلاف اللفظ ولا مشاحة إذ العبرة بالمعنى وليس سوى المعنى. سؤال مفتاحي لا مناص منه هو : أي الأعمال أحب إلى الله وأكثر أجرا؟ هذا السؤال مهم لأن الأعمال لا يحصيها من أراد أن يحصيها إذ هي تتجدد مع كل فجر جديد. وإنما شيد الإسلام لنفسه وشريعته هندسة أودعها جذره الأوحد الذي أنبت جذوعه الأربعة العظمى والتي أينعت بدورها أغصانا نضرة وأوراقا خضرة وأثمرت ما لذ وطاب وفي أفنائها ظلال وارفة. تلك هي شجرة الإسلام الكلية العامة الكبرى أي أنها معلومة التضاريس والهندسة في كلياتها جذرية وجذعية ولكن الأغصان لا تحصى ومثلها الأوراق والثمرات والظلال. ومن ذا جاءت فكرة التأسيس لعلم الأولويات أو فقه مراتب الأعمال إذ الإسلام في تمثيل آخر عجيب هو غابة لا حدود لها حقا وفعلا وصدقا وليس مبالغة. غابة لها باب واحد يدخل منه طالب المتعة والنزهة فإذا ولج غابة الإسلام من بابها الرئيس ألفى مطويات قصيرة صغيرة تدله كما يفعل أصحاب الغابات والحدائق إذ يكلفون بالباب من يستقبل الناس ويرشدهم. غابة لا تحصى حدائقها ولا تحصى شجيرات حدائقها.

لا تحصى حقا ألوانها وروائحها وهيئاتها وظلالها وثمراتها فإن أنت ظللت مشغولا بأوّل ريح زكم أنفك أو أوّل ظل إستهواك ثراؤه أو أوّل ثمرة وجد لسانك طعمها أحلى من العسل المصفى فإنك تحرم نفسك مما جئت لأجله وهو التنزه في الحديقة بل التجول في كل الحدائق لعلك تصل عشر معشار الغابة.

الحصيف الرشيد هنا هو من يتمسك بالدليل الذي تسلمه عند ولوجه ليعرف خصيصة كل حديقة وشميلة كل شجرة وغير ذلك مما هو لا يحصى ولكن تختلف ألوانه وأشكاله وريحه وطعمه وماؤه. ذلك هو معنى فقه مراتب الأعمال أو علم الأولويات أي أن الحياة قصيرة صغيرة فلا تضيّعها عند شجرة واحدة مهما بدت لك جميلة ولا عند حديقة واحدة مهما تزينت لك بثمارها وشذاها. ذلك هو خير مثال للإسلام فهو شجرة إن تسلقت منها غصنا فاتك الغصن الآخر وهو غابة أو حديقة غنّاء ظليلة إن إستظللت فيها بظل فاتتك ظلال وثمرات وطعوم. معنى ذلك هو أن للإسلام جذرا لا مناص لك منه وهو عقيدة التوحيد عفوا من كل نابتة شرك وجذوعا أربعة تزكي نفسك وتطهر روحك لا مناص لك منها وهي الصلاة والصيام والزكاة والحج وأغصان مؤسسة لا مناص لك منها كذلك منها غصن الرحم والجوار ومنها غصن الخلق الدمث الطيب مع كل أحد عرفته أم لم تعرفه ومنها غصن العلم والمعرفة بحثا ودراسة وإجتهادا وتجددا وأغصان أخرى لا تحصى.

واجبك الآن بعد ذلك هو التخصص في غصن ما أو ظل ما أو ثمرة ما إذ الحياة قصيرة فلا مناص من التخصص. التخصص هو إحدى معاني مراتب الأعمال أو الأولويات. حتى لو تخصصت في طلب العيش الحلال

فأنت مجاهد مقاوم دون ريب ولكن التخصص المقصود هنا تراتبية عملية وأولوية هو التخصص العلمي الذي يجعل منك متدينا عارفا فقيها عالما عندما تصطدم الأدلة وهي مصطدمة لا محالة شأنها شأن الحياة التي لا يتمحض فيها خير إلا وفيه شر ولا يتمحض فيها شر إلا وفيه خير. ومن ذا جاءت فكرة مراتب الأعمال أو فقه الأولويات بالتعبير المعاصر.

فكرة الأولويات تعالج فكرة سابقة في هذا الكراس وأنف ذكرها حول عدم إحتفاظ الأعمال صالحها وسيئها بسعر واحد إذ لا يتساوى عمل صالح مع عمل صالح آخر أبدا مطلقا ومثل ذلك لا يستاوى عمل سيء مع عمل سيء آخر أبدا مطلقا. السؤال هو إذن ما هو العمل الصالح الأحب إلى الله والأكثر ذخرا وأجرا؟ العمل الصالح الأحب إلى الله وأكثر أجرا هو العمل الصالح الذي يأتي في مكانه وزمانه وبحجمه إذ هو العمل الصالح النافع. بالمثال يتضح الحال من السنة إذ تصارع صحابي يوما مع صحابي آخر بحضرته عليه السلام في مقابلة ودية بيضاء فقال المصروع ـ أي المغلوب ـ : حسبي الله ونعم الوكيل فنهاه عليه السلام عن هذا الذكر ـ وهو ذكر مأثور معروف بل هو ذكر قرآني كذلك ـ وأشار عليه بأن يدع ذلك العمل الصالح ـ أي ذكر الله بهذا الذكر ـ وأن يقترف عملا صالحا آخر هو أحب إلى الله لأنه أنفع لذلك المغلوب وقال له : إستعن بالله ولا تعجز. نهاه عن عمل صالح في غير مكانه ولا زمانه وأمره بعمل صالح في مكانه وزمانه. أقول دوما للمصلين في خطبة الجمعة أنه لو نشأ الآن ونحن في هذه الحال حريق ـ لا قدر الله ـ في بيت جارنا الألماني وهو غير مسلم ماذا يكون العمل الصالح الأحب إلى الله والأنفع أثرا في الآخرة؟ هو قطعا مقطوعا الهروع من قدر منا مقدر من الناس إلى المنزل الذي شبّ فيه الحريق كفيل

بإطفاء الحريق أو تعويقه حتى قدوم سيارة الإطفاء ونظل كذلك حتى لو إقتضى الأمر إنقاذا لأمتعة الناس وليس للناس أنفسهم فحسب وقد فاتتنا صلاة الجمعة أو الظهر ومعها العصر بل حتى المغرب والعشاء. وقد شغل مرة عليه السلام مع الصحابة عن صلاة العصر ليس نسيانا ولكن إنجازا لما لم يتم إنجازه من أخدود الخندق الذي يحمي المدينة من هجوم الحلف العسكري العربي الأكبر أي قريش وغطفان. تلك هي فكرة موجزة عن فقه مراتب الأعمال أو علم الأولويات ومحلها في العادة إزدحام الأعمال أو إكتظاظها أو زحمة الحياة أو غير ذلك مما يقع في الحياة للفرد أو للجماعة.

الأولويات كثيرة ولا يمكن إحصاؤها وحسبي هنا بعض الأمثلة سيما إذا كانت الفكرة المؤسسة لهذا العلم واضحة جلية. ولقد مرّ بنا أن حبر الأمة إبن عباس عليهما الرضوان لّما علم أن خروجه مع المكدود في حاجته أجزل أجرا عند الله سبحانه يوم القيامة من تلبثه في عبادة الإعتكاف في مسجده هو عليه السلام يتحرى ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر لم يتردد طرفة عين واحدة في الخروج. هذا المثال خير مشهد يعلّمنا أن للدين مراتب أعمال وأن أسعار أعماله مختلفة وأن له أولويات تنقدح في حياة الإنسان مع إنقداح كل فجر جديد لمن يحيا زمانه ومكانه وأن العمل المتعدي أجزل أجرا كما مرّ بنا كذلك في قواعد التدين من العمل اللازم سيما في المباحات والمسنونات وليس في المفروضات والواجبات العينية المؤكدة

معيار فقه مراتب الأعمال :
تغير الزمان والمكان والحال والعرف

هذه في الأصل قاعدة أصولية فقهية مشهورة ألف فيها بعضهم كتابا كاملا من مثل الشيخ القرضاوي وغيره وقد أنف أن إسم القاعدة هو أنه لا ينكر تغير الفتوى أو الحكم بتغير الموجبات وهي موجبات أربعة كبرى معروفة أبرزها الزمان والمكان والحال والعرف ولكنها قابلة للتوسع على قاعدة هذا المعيار الثابت : أي تغير الزمان والمكان كما فعل الإمام الشافعي بمنظومته الفقهية إذ غير ثلثيها كما يقولون في وقت وجيز هو مسافة عبوره من العراق إلى مصر. فما بالك ونحن اليوم في أكثر وجوه فقهنا نتبع مدونات لها من العمر قرونا طويلة وبمثل ما راجع تلميذا أبي حنيفة (محمد وأبو يوسف) مدونته الفقهية في ثلثيها كذلك حتى قال الفقهاء إن كل ذلك سواء عند الشافعي أو عند تلميذي أبي حنيفة ما كان بسبب تغير الدليل بل بسبب تغير الزمان. وهو الأمر الذي جعله عليه السلام وهو المعلم الذي يخط للناس هذا الفقه يفتي للشيخ بتقبيل زوجه وهو صائم ويفتي بضده لشاب سأله السؤال نفسه. وعلى خطاه جاء حبر الأمة إبن عباس الذي أفتى قاتلا بالتوبة وآخر بضدها وليس بينهما ما يكفي لطواف حول الكعبة أو مسعى بين الجبلين حتى غمر الصحابة عجب فأخبرهم بأنه

إستخدم الفراسة فأفتى قاتلا يهم بالقتل بعدم التوبة زجرا له وأفتى قاتلا أنجز جريمته وجاء متذللا خائفا بها.

كل تلك الأمثلة وهي كثيرة لا تحصى في التاريخ وفي السنة وفي الواقع تؤكد فكرة قيام التدين الأرشد على مراتب الأعمال وقاعدة الأولويات . فمن تدين معتبرا هذا الأساس أضحى تدينه صحيحا معاصرا ومن تدين باتباع أعمى حتى لو كان يلهج بإتباع السنة وهو بالسنة أجهل فقد غدا تدينه أرعن. ذلك هو الدين ثابت راسخ في جذره وجذوعه وبعض غصونه ولكنه مرن منفتح قابل للتغير والتجدد والتبدل في غير ذلك على أساس توفير الجرعة المعقولية لأحكامه وعلى قاعدة رعاية متغيرات الزمان والمكان والحال والعرف إبتغاء تحمله من لدن المتدين سعادة غامرة حتى وهي مشوبة بمشقة التكليف الذي تأباه النفس وليس ضريبة سماوية إلهية لا تدفع

أولوية أولى عنوانها :
التعليل يقتضي التبديل

لا مناص من التذكير بأكبر منطلقات طالب العلم الشرعي وهي أن الشريعة الإسلامية بمعناها الإسلامي وليس بمعناها المعاصر العرفي هي شريعة مقصدة معللة مفهومة معقولة. ولكنها في ذلك الإطار وليس خارجه قسمان كبيران : قسم يكون التعليل فيها عاما كليا من حيث التأسيس وليس تفصيليا وهو قسم العقائد والعبادات. وقسم يكون التعليل فيها عاما وكليا من جهة وتفصيليا فرعيا جزئيا من جهة أخرى. ويمكن أن نضيف إليهما قسما آخر هو مشترك بين الأمرين وهو قسم الأسرة إذ فيه ما ينتمي إلى القسم الأول ومنه ما ينتمي إلى القسم الثاني. تلك هي إحدى منطلقات طالب العلم الكبرى فمن وعاها وعى تدينه وأرشده. وبذلك تظل المساحة الأولى أي العقائد والعبادات ثابتة راسخة لا تتبدل ولا تتغير في أقوالها وأشكالها وأبنيتها مهما كانت جزئية صغيرة دقيقة وسواء علمنا ذلك المقصد من تلك الجزئية أم لا. في حين أن المساحة الأخرى أي مساحة المعاملات في كل حقل من حقول الحياة تظل خاضعة أبدا ومطلقا لعلتها ومقصدها وسببها. وبذلك سطر الفقهاء أصلا فقهيا أعظم سموه : يدور الحكم مع علته وجودا وعدما. فلا تطبيق لشريعة إلا

بوجود علتها وتوفر محلها كما فعل الفاروق عمر وتعلمنا منه تنفيذات ذلك. التعليل يقتضي التبديل يعني أنه في المساحة الثانية وليس الأولى كلما غاب المحل الذي لأجله جاء الحكم الشرعي فإن الحكم الشرعي ذاك لا يطبق ولا ينفذ ولا ينزل كائنا ما كانت قيمته ذلك أنه ـ وكما أنف تجلية ذلك ـ لا بد للعملية الدينية من مراحل ثلاث : هي مرحلة تخريج النص أو الحكم أي من مصدره الأصلي. ثم مرحلة تهذيبه وتشذيبه أن تعلق به عالقات أخرى يشتبه لعديم العلم وغير دقيق الفقه أنها منه وليست منه. ثم مرحلة تحقيق ذلك الحكم ليظل واقعا مشهودا فوق محله وعلى الأرض. وهي العملية التي تسمى مناطا وهي مخ علم أصول الفقه منطق الإسلام بتعبير إبن خلدون. وبالمثال يتضح الحال ولكن سأضرب للقارئ مثالا معاصرا من ناحية وصادما من ناحية أخرى. نظام الإرث في الإسلام نظام ثابت راسخ ينتمي في كلياته وليس في تفاصيله للمحكمات وليس للمتشابهات وبذلك فهو حقل معلل مقصد مفهوم معقول وليس هو حقل علته الطاعة بالغيب كحقل العقائد والعبادات. أخبرنا سبحانه كعادة الوحي دوما تعليلا وتقصيدا وتفهيما وتفقيها أن قوامة الزوج على زوجه في سورة النساء ـ وإمتدادا للدرجة المذكورة في سورة البقرة ـ علتها النصية المذكورة هي «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ»[87] ومعنى تلك العلة هي أن الزوج ـ وبصفته الزوجية ـ هو القائم

---

[87] سورة النساء - الآية 34

بمبالغة وقوة (فهو قوام) على زوجه بسبب أهليته المادية والنفسية لحماية الأسرة نحتا لأسباب العيش وجلبا لمرافقه مما تحتاجه الأسرة إذ هو مفضل على زوجه ـ بصفتها الأنثوية ـ بقوة مادية وبدنية وبأهلية نفسية تستوعب ساعات الجزع وتحتويها بأسرع مما تفعل المرأة. وكل ذلك يجعله أكثر أهلية منها لجلب ما به تقوم الحياة أي المال الذي هو قوام الأعمال. وهي مفضلة عليه بأشياء أخرى لا أرب لنا فيها الآن لأنها خارجة عن نطاق الحديث. تلك هي علة القوامة وسبب الدرجة ولكن في إطار تفاضل مشترك متبادل إبتغاء التكامل.

هذا هو الأصل الذي يريده الله سبحانه للناس والحياة والعائلة ولكن في الشريعة مخارج للطوارئ كما يسميها العبيد الفقير لربه سبحانه فإذا ألفينا ـ ونحن لافون قطعا ـ حالة من مائة حالة أو ألف حالة أو أكثر من ذلك أو أقل تكون فيها الزوج هي من يتحقق فيها ذلك السبب أو هي من بيدها تلك العلة فهي الأقوى والأجدر مقارنة إذ يكون زوجها منذ البداية أو في أثناء الطريق ذا عاهة نفسية أو بدنية فلا يؤمّن للعائلة مرافقها ولا يضمن لها حاجياتها فهل نجمد على هذا الحكم الشرعي (حكم القوامة والدرجة) ويظل الزوج المعوق نفسيا أو بدنيا هو القوام ذو الدرجة ـ أي المسؤول بالتعبير المعاصر ـ أم نحوّل ذلك الحكم ليتلبس بالزوجة تحكيما لتلك القاعدة آنفة الذكر : يدور الحكم مع علته وجودا وعدما؟ إذا جمدنا على الحكم الأصلي الأوّلي بشتى ضروب من الكلام الفارغ حتى لو بدا ظاهره تدينا وتقوى فإن المآل هو حتما محتوما : ضياع عائلة بما فيها ومن فيها إذ أضحت قاربا بلا ربّان بعد مرض ربانها وإذا إتّبعنا الشرع الحكيم وقواعده وأجرينا علاقة نكاح شرعية بين الحكم وعلته فأنطنا العلة

بحاملها هنا وهي الزوجة التي أضحت الآن هي القوامة وصاحبة الدرجة فإن المآل قطعا مقطوعا هو : صلاح العائلة وصلاح حالها وتعافيها. ما الذي يجعل الناس ـ بل دعني بلا مواربة أقول : العلماء والدعاة ـ لا يكتبون هذا وإذا ما كتب أو قيل ـ تمثيلا موجودا في الحياة ـ يستهجن من بعضهم بل ربما يعارض ومن خلفهم جيش لجب من الشباب المتدين الذي يسمع بالمحكمات والثوابت فلا يعيها تفصيلا ولكن يعالجها كما يعالج الأعمى فيلا ؟ الجواب هو : أنهم يخافون على تدين الناس أي أنهم ينزلون أنفسهم منزلة الوصاية على الدين حتى في المناطق التي تستوجب منهم توضيح المسائل والتسلح بالشجاعة. لا أزدريهم والله ولكن هذا ما لمسته مرات ومرات من أكبر طائفة من أولئك وهو توجه لا يرحب به الإسلام الذي علمنا أساسات التدين وقواعده أي تغليب العلة في مساحات التعليل وليس خارجها والذي أخبرنا مرات ومرات عن إعفاء محمد نفسه عليه السلام من صفات الحفظ والوكالة والسيطرة فلا يكون حظه بين الله وبين عباده عدا حظ البلاغ المبين ثم ليكن التدين في متناول كل متدين يعالجه بما أوتى من علم. هذا التوجه لم ألمسه إلا قليلا عند أكثر الدعاة والعلماء ومن خلفهم كما قلت المتدينون الجدد. ذاك هو خير مثال عندي يتعلق بأسبقية تغليب التعليل وأثره على الأصل إن وجد وأن تبدل الحكم ما دام عمليا لا عقديا ولا عباديا. ذاك هو التدين الأحصف الأرشد ما تبدلت العلة أي تبدل مناطها ومحلها هنا مثلا من الزوج إلى الزوجة تحقيقا للمصلحة إذ ليس من مقصد أسنى لشريعة الإسلام عدا تحقيق مصلحة الناس في معاشهم والمعاد. بعضهم يركل هذا خوفا زائفا من تقحم العلمانيين وتسلل اللبراليين إلى شريعة الإسلام ومحكماته ولا أزيد على أنه رب عذر أقبح من

ذنب. الإسلام محمي من الله نفسه سبحانه بل هو ظاهر على الدين كله وأخطر وضع ينخرط فيه كثير من الدعاة والعلماء هو الوصاية على العلم والوساطة بين الله وبين عباده فمن خاف على الإسلام ما فقه منه شيئا ومن خاف على الناس ما فقه شيئا ومن خاف على الدين كمن خوّف منه. كلاهما في منزلة خاطئة حتى لو إنطلق كل منهما من إتجاه مغاير. تلك هي الخلاصة : أبصر الحقل الذي أنت فيه فإن كان تعبديا محضا فنفذ الحكم ولا تبالي وإن كان معللا معقولا فانظر إلى العلة وشذبها حتى تكون منوطة بحكمها فلا تنفيذ لأي حكم شرعي كائنا ما كان إحكامه في الحقل المعقول إلا بعلته وعندها فحسب تصيب محله. ولا تظنن أن مبدأ القوامة أو مشروعية الدرجة ستنتفي أو تلغى كلما تبدل صاحبها لأن هذه الحالات إستثنائية والطارئات تراعى في شريعة مخها الواقعية ومراعاة الضرورات

أولية ثانية عنوانها : رعاية فقه المحلّ

التدين صناعة ثلاثية المراحل كما أنف ذكره. صناعة الحكم الشرعي هي صناعة تولى أكثرها الوحي الكريم سيما في أصول الحكم الشرعي لأن إستيفاءها غير ممكن ولذلك جاء القياس وغيره. وصناعة العلة الواصلة بين المحل وبين حكمه وهي التي تولتها الفقرة الآنفة (مثال القوامة والدرجة وتغير محلهما). وصناعة المحل أو تحقيق الحكم الشرعي وهي وظيفة هذه الفقرة. المحل هو المقصود بالتطبيق ويكون شخصا أو جماعة أو غير ذلك. يعبر عنه أحيانا بالمآل وتختلف التعبيرات والمعبر عنه واحد فهو محل وهو مآل وهو واقع كما نقول نحن اليوم : فقه الواقع. لماذا يراعى الواقع؟ يراعى الواقع (المحل أو المآل) نشدانا لوقوع الحكم الشرعي في مكانه وزمانه وبحجمه وعلى صاحبه ومحققا لمقصده فكلما تخلف المقصد وغابت العلة فلا شريعة ولا شرع ولا حكم ويقول في ذلك إبن القيم كلمة من ذهب خالص (لا واجب مع عجز ولا حرام مع ضرورة). الشريعة هي التي جاءت بهذا السلم الثلاثي : الحكم والعلة والمحل. فإذا طبقت الشريعة في أي جزئية منها ولم تؤت ثمرتها المرجوة فإن الشريعة تكون عبثا معبوثا إذ هي أخبرتنا أنها جاءت لصلاح الحياة بصلاح المستأمن عليها أي الإنسان. الأمثلة كثيرة ومنها مثال إعادة بناء

الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام من لدن محمد عليه السلام إذ أنه لمّا حدث بذلك زوجه إنما أوحي إليه وليس فكرة من عنده وإنما أحجم عن ذلك معللا إياه بأن القوم حديثوا عهد بشرك وإسلام معا فينشأ من ذاك سوء فهم وسوء تقدير وتنتشر القالة بين العرب وهم يعظمون الكعبة تعظيما حقيقيا حتى لو كان تعظيما مشوبا بالشرك ويساء فهم عمله عليه السلام فتكون العاقبة سيئة. ولذا أخبر زوجه التي نقلت إلينا الحديث ولكنه أحجم عن الفعل ونفيد من ذلك أن المحل لم يكن مناسبا حتى لو كان في الأمر حكم شرعي يقضي بإعادة الكعبة إلى أصلها الذي عليه بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قبل أن يجرف بعضها السيل.

ومن أمثلة رعايته عليه السلام لتوفر المحل المناسب لتطبيق الحكم الشرعي قوله عليه السلام عندما أشار عليه بعض الأصحاب بقتل المنافقين ـ وربّما كان ذلك في إثر حادثة الإفك التي تولى كبرها كبيرهم أو في الحادثة التي نزلت فيها سورة (المنافقون) ـ «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» [88]. بالتعبير المعاصر نقول اليوم أنه عليه السلام إعتبر أصداء الشاهد الدولي ولم يلغها وليس ذلك خوفا كما يهذي الأغرار اليوم ويهرف الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون ولكنه الحرص على توفر المحل المناسب لتطبيق الشريعة التي تزكم أنوف الناس بالطيب والذكر الحسن فترغبهم بعدلها وليس تنفرهم بجورها. من الأمثلة كذلك أن الفاروق علق تطبيق حكم السرقة وهو ثابت على بعضهم في عام المجاعة بالعراق وهو القطع الوارد في سورة المائدة وهو حكم ثابت محكم راسخ ولكنه أحجم

---

[88] أخرجه البخاري عن جابر عليه الرضوان

عن تطبيق شريعة القطع بعد ثبوت السرقة على بعضهم. السؤال هو لم؟ الجواب هو : لأن تطبيق الشريعة هنا لا يوفي الشريعة مقصدها إذ أن مقصد تطبيق حد السرقة هو حماية الناس في أموالهم وتحقيق الأمن لهم فيها ومقاومة الفساد في الأرض بمقاومة السراق الذين يعتدون على أموال الناس عدوانا وليس حاجة لأكل أو شرب أو مال. أحجم عمر عن تطبيق الشريعة هنا ليس نكرانا للحكم الشرعي المحكم الثابت وليس عجزا عن تنفيذه وهو في السلطة وليس رأفة بالسراق ولكن لأن تطبيق الشريعة هنا لا معنى له إذ أن السراق أخذوا أموال الناس لأنهم جوعى جوعا يهدد حياتهم أو حياة من يعولون أو يكون ذلك غلبة ظن في بعضهم على الأقل.

تخلف المحل إذن فتخلف الحكم تبعا له. وأفعال الفاروق هنا كثيرة لا يمكن إحصاؤها وأكثرها من هذا القبيل أي يعلق حكما شرعيا ثابتا محكما راسخا لا نكرانا ولا رأفة ولا عجزا ولكن لتخلف المقصد الذي لأجله شرع الحكم أي لتخلف المحل أو الواقع أو المآل الذي لو طبق فيه حد السرقة لآل إلى ضد ما تريده الشريعة أي لمات بعض الناس جوعا في زمن مسغبة وللناس أموال عفوا . أظن أن الأمر جلي واضح لا يحتاج لمزيد من الحديث. وعليه نقيس أوضاعنا الراهنة في كل جزئية وكل صغيرة أو كبيرة فلا شريعة إلا ومحلها جاهز لتنفيذ مقصده عدا في الحقل التعبدي غير المعقول كما تقدم وأولى منه بالطبيعة الحقل العقدي

أولية ثالثة عنوانها :
الإنسان كائن مقدس

عنوان هذه الأولوية هو أنه لا شيء أغضب لله سبحانه بعد الإشراك به من العدوان على الكائن الذي خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وقدسه وهو القدوس سبحانه تقديسا. المقصود بهذه الأولوية هو قوله عليه السلام «ما يزال المؤمن في سعة من دينه ما لم يصب دما حراما» [89] . ومعلوم أن حبر الأمة إبن عباس عليهما الرضوان ظل يخالف الصحابة كلهم تقريبا حتى مات مفتيا بعدم التوبة للقاتل ولعله يقرأ ذلك من هذا التشديد الذي لم يرد مثله قط في الكتاب العزيز «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»[90]. أجل. لا تجد في الكتاب كله تقريبا هذا الوعيد المكثف رباعي الأبعاد إذ هو الخلود في جهنم أوّلا وغضب الله ثانيا ولعنته إياه ثالثا وعذاب عظيم رابعا. من الخلاصات التي إستنبطها العبد الفقير من الكتاب العزيز جيئة وذهابا لزهاء نصف قرن كامل هي أنه لا شيء أغضب لله سبحانه ـ وهو الرحمان

---

[89] الهامش الثاني : البخاري عن إبن عمر

[90] الهامش الثالث : سورة النساء آية 93

الرحيم ـ بعد الإشراك به أكثر من العدوان على الإنسان بناء الرحمان كما قيل. ذلك أنه كرم الإنسان بسبب النفخة الروحية التي أودعها فؤاده حتى إنه سبحانه رتب العذاب نفسه تقريبا على من قتل نفسه بخلاف النظرة الغربية الفاسدة التي تعتبر أن النفس ملك صاحبها فهو أحق بها إزهاقا وإحياء. المقصود من هذا هو أن المتدين الرشيد الحصيف هو من يشيّد سورا بينه وبين الإنسان كله هو الأشهق والأسمك فلا يطأ منه شيئا أبدا لا بدنا ولا نفسا ولا روحا ولا مالا ولا عرضا ولا أهلا فإن إستطاع نفعه ولو ببسمة من المحيا فبها ونعمت وإلا فليتجنب الإنسان ويتقه كما يتقي النار بل أشد. حرر بعضهم ذلك بقولهم : حقوق الله مبناها التسامح وحقوق الإنسان مبناها المشاحة وهو كلام صحيح. فمن ظلم نفسه يجد نفسه يوم القيامة من أهل الجنة كما ورد بذلك قوله سبحانه «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ» [91] أما من ظلم الناس فقد رتب العلماء فيه قالة صحيحة إذ قالوا بأن الظلم أنواع ثلاثة : الشرك ظلم لا يغفر وظلم النفس لا يبالي الله به أي يغفره برحمته إن شاء الله سبحانه أما ظلم الناس بعضهم لبعض فلا يتركه سبحانه أي ينظم له كما قالوا جلسات جانبية ليقتص كل مظلوم من ظالمه .

ولقد علمنا من الحديث الشريف الصحيح أن أوّل ما يقضى بين العباد يوم القيامة في الدماء وما ذلك سوى لأنها الأثقل في الميزان فمن حصّن نفسه من ذلك السرطان الذي لا يبقي ولا يذر أي العدوان على الإنسان فقد تحصن من العذاب ومن وقع فيه فقد وقع في المهلكة والعياذ بالله. ذلك هو

---

[91] سورة فاطرة – الآية 32

التدين الأرشد : أدّ حق ربك عليك عبادة لا إشراك فيها وأدّ حق نفسك عليك عبادة بها تتزكى وتتطهر ثم تجنب الناس وأتقهم فإن أحسنت لبعضهم فهو ذاك أما الظلم فهو ظلمات يوم القيامة. من جاء ربه يوم القيامة وليس عليه لأحد شيئا وهو مؤمن فمأواه الجنة إن شاء الله. إذا كنا قد أخبرنا بأن إمرأة دخلت النار في هرة حبستها فجوعتها وأن أخرى دخلت الجنة وهي بغي في كلب سقته بموقها فكيف بالإنسان المكرم بنفخة الرحمان سبحانه؟ التدين كله بشيء من التجوز هو : إتق الناس أن تسيء إليهم وإلا سقطت في الإفلاس كما سيأتي في محور الآفات

أولية رابعة عنوانها :
التحرير قبل التشريع

مبنى الإسلام هو الحرية والتحرير. ومما إستنبطته أيضا أن الله سبحانه حررنا ثم دعانا إليه ولم يكرهنا عليه بل قال لنا بوضوح كاف «فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»[92] وإن أعجب في حياتي فعجبي هو أن الله سبحانه وهو الحق الذي لا يرضى لنا عدا الشكر لم يكرهنا على عبادته وهو يعلم أن عبادته هي محض السعادة في الدارين. لم لم يكرهنا سبحانه؟ تكريما لنا دون ريب إذ أكرمنا بأن حررنا بالإرادة والعقل فما أراد لنا منزلة البهيمة التي تعبد الله كرها وغيرها.هذا هو منطلق فلسفة التحرير في الإسلام لمن كان له قلب وما عدا ذلك تفاصيل وجزئيات وفروع.

ورد الإسلام إلينا بالتحرير قبل التعبيد وقبل التشريع وقبل كل شيء.

في العهد المكي بدأ التشريع منذ اليوم الأوّل يدعو إلى تحرير العبيد وجعل لذلك كفارات شرعية أن يضن الناس بمالهم على العبيد أو لا يجدوا أموالا أصلا. وفي العهد المدني أخبرنا أن الصبر خير ـ لمن يستطيع ـ من نكاح الإماء ثم أخبرنا أن الأمة إذا أتت فاحشة «فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ

---

[92] سورة الكهف - الآية 29

مِنَ الْعَذَابِ» [93] وذلك حتى يحقننا بحقنة الحرية ويعلمنا أن الحرية هي مناط التكلف فأنت مكلف ومسؤول بقدر ما أنت عليه من حرية وتحرر وإنعتاق. ولم يقصر القضية على هذا بل أخبرنا في أوّل آية بعد أعظم آية أنه لا إكراه في الدين إذ نفى الإكراه ولم يقصر الأمر على أن نهانا عن الإكراه. والنفي أعظم من النهي ألف مرة ومرة. حرر الإسلام الناس بأن أمرهم بالهجرة من أرض ليس لهم فيها حرية الإختيار وأخبرنا أنه لا حساب إلا على من بلغته الرسالة الإسلامية صحيحة رقراقة طرية كما أنزلت بحيث يعقلها صاحبها وهو مؤهل لذلك حرية وإرادة وعقلا وتكليفا «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » [94] وأدلة أخرى لا تحصى قوامها أن الإسلام يحرر الإنسان أوّلا فإذا تحرر من كل صور الإكراه وعرضت عليه الرسالة فهو مسؤول وإلا فلا حرج عليه. ذلك هو معنى أن التحرير في هذه الشريعة يسبق التعبيد أو الدعوة إلى العبادة إذ التحرير أولى من التعبيد. كيف لا والعقيدة الإسلامة ـ جذر الإسلام الأوحد ـ مبناها الحرية حتى قال العلماء بحق أنه لا يقبل إيمان المكره؟ ومثل ذلك فإن العدل أسبق من التشريع إذ تأخر التشريع العملي حتى تحرر الناس من إكراهات مكة فلما كانوا في أرض حرية نزلت التشريعات ثم لم تطبق تلك التشريعات حتى إنبسط العدل بين الناس والأمن وهو ما فعله الفاروق عمر كما مرّ بنا شيء منه آنفا. ذلك هو معنى أن الإسلام نظام عجيب في نسقه فهو يرتب الأشياء وينظمها نظما كريما إذ هو يقدم التحرير على التعبيد ثم يقدم العدل والأمن على التشريع والمؤاخذة فلا يؤاخذ الإنسان يوم القيامة إلا إذا

[93] سورة النساء – الآية 25

[94] سورة الإسراء – الآية 15

ثبت أن الإسلام بلغه ولا يؤاخذ اليوم إنسان حتى يثبت أنه كان آمنا غير خائف وأنه كان ينعم بالعدل وليس بالجور والحيف. ذلك هو الأمر الذي لم يفقهه أكثر الذين يدعون إلى تطبيق الشريعة.

وتطبيق الشريعة لا يعني سوى إرساء الحرية أوّلا للناس ثم إرساء الأمن بين أيديهم ثم إرساء العدالة الإجتماعية بينهم فإذا تمّ كل ذلك فإن الشريعة تأخذ مجراها لحماية أموال الناس وحرماتهم وكراماتهم ووحدتهم وحرياتهم وليس لتكون سيفا مسلطا عليهم يجري بها الحيف لتقام الحدود على الفقير والوضيع وتدرأ عن الغني والشريف

أولوية خامسة عنوانها
لا تلبس إيمانك بشرك تدخل الجنة

تأخير هذه الأولوية المتعلقة بأم الإسلام وبؤبؤ الإيمان (التوحيد الإلهي الصافي الخالص من كل شرك) لا يعني تأخير مقام ولا غفلة منّي إذ أن هذا المعنى تشربته فقرات خلت وأخرى تأتي بحوله سبحانه في هذا الكراس. لا أريد الإطناب في هذا الكراس ولذا لم أذكر ما يجول في ذهني من أولويات من جهة ومن جهة أخرى فإن المقصود هنا ـ أي من هذه الأولوية الخامسة الأخيرة ـ إنما هو ذلك الجذر العقدي الذي تحدثت عنه كثيرا في هذا الكراس. الإيمان السليم بالتعبير القرآني. هذه الأولوية أصلها حديثه عليه السلام «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. فقال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق؟ فقال عليه السلام : وإن زنى وإن سرق. وظل أبو ذر يكرر السؤال نفسه عليه عليه الصلاة والسلام ثلاثا وفي الرابعة قال عليه السلام : وإن زنى وإن سرق ورغم أنف أبي ذر» [95]. هنا لا بدّ لنا من وقفة تبدد شكوكا ذات أصلين : شكوك من جانب من هم على طينة أبي ذر عليه الرحمة والرضوان أي الذين يستعجبون من هذا ومنهم من في زماننا

[95] البخاري عن أبي ذر الغفاري

يستكثرون ذلك على الله سبحانه ظنا منهم أن الإعتقاد مساو للعمل أو هما سيّان وهو مذهب يفضي بصاحبه إلى الغلو كما ذكر القرآن الكريم وإلى التشدد كما قال عليه السلام إذ حذر الأمة من التشدد كما فعل بنو إسرائيل فشدد الله عليهم. وشكوك من من جانب صنف آخر من الناس ممن لا يفقهون حقيقة التوحيد المقصود في هذه الحديث. الحقيقة هنا حقيقتان : الحقيقة الأولى هي أن الإعتقاد شيء والعمل شيء آخر ومن لم يفقه التمييز بينهما فقد عرّض إيمانه وتدينه لثغرات تفترسه وهو لا يدري. ذلك أن الإعتقاد حق الله سبحانه المطلق فكلما كان صحيحا صحة توحيد لا يشغب عليها أي شرك أو شائبة من شرك كان صاحبه على الصراط المستقيم. الحقيقة الثانية هي أن التوحيد المقصود هنا هو ذلك التوحيد الذي أخبرنا عنه سبحانه في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام أي التوحيد الذي لم يلبس بظلم كما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام المكية النازلة دفعة واحدة وقضيتها الأولى والأخيرة إنما هي (من هو الله سبحانه) أي تنقية العبادة بمعناها التوحيدي الإيماني العقدي وليس العملي من كل شوائب الشرك. في تلك القصة ومما ورد في السنة تبيينا لها أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار عرض له أمين الوحي جبريل عليه السلام يسأله إن كان يريد منه شيئا وهو في طريقه إلى النار فقال : لا. بمثل ذلك الإيمان الإبراهيمي ـ وإبراهيم عندي هو رمز القصة التوحيدية في الكتاب العزيز ـ نفهم أن من قال إعتقادا لا إله إلا الله فمات على ذلك دخل الجنة على ما كان منه من عمل ورغم أنف كل من يرتاب في ذلك أو يشكك فيه. المسألة هنا قد تشتبه ـ وحقّ ذلك ـ على بعضنا إذ يجد أن حقوق الإنسان لا مغفرة فيها إلا من المظلوم نفسه وأن

الله سبحانه لا يترك ذلك الظلم والحال أن الحديث هنا يتضمن قوله عليه السلام (وإن سرق) والحال أن السرقة عدوان على حقوق الإنسان المالية. هذا سؤال وجيه لأنه يثير تعارضا في أدلة الشريعة.

هنا لا بد من الجمع بينها والجمع بينها يقودنا إلى أمرين : أوّلهما أن التوحيد الصافي على الملة الإبراهيمية يحجز صاحبه عن السرقة والعدوان على حقوق الإنسان قطعا مقطوعا إلاّ لما ـ بمعنى الإلمام مرة أو مرتين ـ وهو مغفور وما ألم به الإنسان الموحد الصافي هنا من عدوان على حقوق الإنسان يدفعه إلى الخلاص منه قبل الموت إستعفاء من صاحبه أو دية. الأمر الثاني هو أن من مات على العقيدة الإبراهيمية السليمة ومات دون توبة من عدوان على حقوق الإنسان أو كبيرة ـ وهذا نادر الوجود في هذه الطائفة وأندر منه الموت دون توبة منه ـ فإن الله سبحانه يغري أهل تلك الحقوق يوم القيامة فيغدق عليهم من فضله بما يجعلهم يتنازلون لما ظفروا به من أفضال في الجنة لا تساويها أفضال. وبذلك يكون الجمع بين دليلين أحدهما لا يتسامح مع حقوق الإنسان والآخر يقدم الرحمة لهم ماداموا قد ماتوا على العقيدة الإسلامية عفوا من كل شائبة شرك أو ظلم ولو صغيرة.

ويظل الأمران كبيرين في الإسلام : ضرورة التحلي بإيمان إبراهيمي سليم ليس فيه أي ظلم ولا شرك وهي حياة قلبية يعرفها أصحابها ممن أخبرنا عنهم عليه السلام أن منهم من «لا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ولا يرقون ولا يسترقون» [96] وهو محل تعارض آخر إذ أن الإسترقاء مباح.

---

[96] من حديث متفق عليه عن إبن عباس والمعروف بحديث عكاشة

وضرورة تجنب الوقوع في حقوق الإنسان بالكلية مطلقا. الأمران يسيران جنب إلى جنب فهذا حق الله سبحانه وذاك حق الإنسان. عدا أن المقصود هنا في هذه الفقرة من هذه الأولوية الخامسة الأخيرة هو أن صون الإيمان من كل شائبة ظلم الذي هو الشرك كما ورد في قصة لقمان عليه السلام مطلوب إذ هو كفيل بمغفرة الذنب كله فيما تعلق بالإنسان بينه وبين ربه في حق ربه عليه وفيما تعلق بالإنسان بينه وبين نفسه بل هو كفيل كذلك بتوفير حاضنات تغفر حقوق الإنسان كما ذكر آنفا أو بالعصمة من الوقوع فيها وقوعا يعسر الخلاص منه قبل الممات.

في رواية أخرى للحديث الذي هو أصل هذه الأولوية الخامسة الأخيرة أن الفاروق عمر عليه الرضوان لقي أبا هريرة يحدث بهذا الحديث ومعه منه عليه السلام أمارة (هي فردة حذائه عليه السلام) أن يكذبه الناس أو يعتدوا عليه فأخذه بقوة عمر المعهودة في مثل هذه المواضع وجاء به إليه عليه السلام فلما أقر عليه السلام أبا هريرة أنه أذن له أن يحدث الناس بذلك الأمل المفتوح لم يتردد الفاروق ـ ذلك العقل الفارق في الإسلام ـ أن يراجعه عليه السلام قائلا له : يا رسول الله دع الناس يعملون فقال عليه السلام بكل خلق عظيم لم يتربع على عرشه سواه : دعهم يعملون إذن. والمقصود من الفاروق هو أن الناس لو سمعوا بهذا إتكلوا عليه وتكاسلوا عن كثير من العمل الصالح الذي كانوا يأتونه. هذه القيمة إذن صحيحة من طرق كثيرة كما يقول علماء الحديث وهي قيمة تبعث في النفس إنشراحا وأملا. وهل رسالة الإسلام سوى رسالة أمل يكفر بالقنوط؟ بل إن ظني أن هذه القيمة من حفظها عقيدة إبراهيمية توحد الرحمان توحيدا هو الأسلم هي التي تحفظ صاحبها من الوقوع في حقوق الإنسان وبذلك تكون له جنّة أن

يلغ فيها فيموت على كبيرة منكورة وبذا يرتفع الحرج الذي يجده الناس بين مختلف هذه الأدلة. عدا أن الناس قليل منهم من يفقه حق الفقه الإيمان الإبراهيمي الذي إرتفع به لأن يكون خليل الرحمان خلة مازال عقلي يقلبها يمينا وشمالا إذ آمن بها ولكن تصورها ندّ عنه. عندما نفقه معنى الإعتقاد أنه لا إله إلا الله كما يريد هو نفسه سبحانه فإن ذلك يعصمنا بإذنه وحده سبحانه من الوقوع في حقوق الإنسان التي تشدد فيها التشريع تشددا لم يتشدد مثله قطّ

المحور الرابع
من آفات التدين

مقدمة عن آفات التدين

نحتاج إلى أن نذكر مرة أخرة بالتمييز بين الدين وبين التدين. إذ الدين إلهي المصدر فهو صحيح مطلق لا تتطرق إليه آفة إذ هو المثال الذي يكدح إليه الناس فمنهم من يصيب شيئا ومنهم من يصيب دون ذلك. أما التدين فهو كسب الإنسان الذي يصيب ويخطئ ويقترب ويبتعد بحسب منهاجه التفكيري وعزيمته وهمته. ومن ذا فإن التدين قد يصاب بالآفات ككل كائن. ألم يصب تدين الخوارج في عهد الإمام علي عليه الرضوان ببعض تلك الآفات إذ كان منهاجهم التفكيري محدودا فأساؤوا تأويل قوله سبحانه «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ» [97]؟ معنى ذلك هو أن حسن التدين سببه حسن الفهم وسوء التدين سببه سوء الفهم. إذ الفهم هو العود في قالة العرب «كيف يستقيم الظل والعود أعوج» والتنزيل هو ظله.

التدين سلوك بشري يصاب بالعافية كما يصاب بالآفات. والإنسان هو المسؤول عن ذلك ولذلك دعانا سبحانه إلى أن نكون أمة وسطا تقية لنا من الشطط هنا أو هناك. وبمثل ذلك دعانا عليه السلام إلى المنطقة العدل في الحديث الذي مرّ بنا آنفا أي حديث العدول. كما أخبرنا سبحانه عن

---

[97] سورة يوسف – الآية 40

بعض آفات التدين الإسرائيلي في سورة البقرة وغيرها كثيرا إذ أن المرآة التاريخية أكثر ما تحمل إلينا في القصص القرآني التجربة الإسرائيلية بشقيها اليهودي والنصراني ومن ذا تكون الحاجة إلى التاريخ حاجة حيوية. آفات التدين كثيرة وهي تنقسم إلى أقسام كثيرة منها آفة الشبهة الفكرية أو العقدية التي قد تفضي إلى الردة أو الكفر والعياذ بالله. ومنها آفة الشهوة التي لا ينجو منها أحد أبدا عدا أن الله سبحانه وهو الرحمان الرحيم تكرم علينا تفضلا منه بغفران السيئات ما إجتنبت الكبائر. ومنها آفة الإنقطاع عن الأصل وهي آفات تصيب التدين العلماني الليبرالي الحديث الذي يتخذ في العادة موقفا من الشريعة العملية لا يليق بالإسلام. ومنها آفة الإنقطاع عن العصر أو الغربة عنه وهي الآفة التي عادة ما تضرب بقوة في التدينات التقليدية ذات النكهات الخرافية الأسطورية أو التدينات السلفية ذات النكهات التجميدية التقديسية للتاريخ. ومنها آفة تقديس الأشخاص وهي الآفة التي ضربت بقوة كذلك في بعض التدينات الباطنية سواء كانت صوفية منحرفة أو شيعية متطرفة كقول الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية أن منزلة الأولياء عندنا أعلى من منزلة الأنبياء. ومنها آفة التجديد في غير محاله وهي الآفة التي ضربت بقوة عند بعض المفكرين الذي لم يتشبعوا مليّا بالأغذية الفكرية الإسلامية الصحيحة إذ خلطوا خلطا شنيعا بين ما هو قابل للتجديد ـ بل مؤهل له أهلية وجوب لحديثه الخاص بتجديد الدين عليه السلام وسيأتي هذا الحديث إن شاء الله ـ وبين ما هو غير قابل لذلك أي مساحات الإعتقاد والعبادات وما هو معلوم من الدين بالضرورة أو المحكمات الثابتات الراسخات حتى لو كانت معللة أو مقصدة مفهومة. وفي الجملة يمكن حصر آفات التدين في صنفين كبيرين

هما أصل فروع كثيرة : صنف من الآفات ينقطع تفكيريا شيئا فشيئا ودون شعور منه عن الأصل بشتى وجوه ذلك الأصل. وصنف من الآفات ينقطع تفكيريا كذلك شيئا فشيئا ودون شعور منه عن العصر وتحدياته وواجباته بشتى الوجوه. ومن ذا فإن القرآن الكريم لم يضنّ علينا بأن وصف لنا ديننا بأنه «زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» [98] وأن منزلة القوامة هي المنزلة الواقية من أصناف الغلو والتحلل معا «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» [99] وظل هذا المعنى يبث في الوحي الكريم قرآنا وسنة لعل الناس يثبتون على وسطية قال فيها الإمام علي عليه الرضوان : عليكم بالنهج الوسط الذي يفيء إليه الغالي ويلحق به التالي وهو ما ظلت عليه الأمة في الجملة وليس في التفصيل وذلك هو معنى أن الأمة في مجموعها لا في آحادها معصومة الإتجاه العام.

[98] سورة النور – الآية 35

[99] سورة الفرقان – الآية 67

الآفة الأولى
ذهاب العلم وإنتشار الجهل

أصل هذه الآفة قوله عليه السلام «إن الله لا يقبض العلم إنتزاعا ينتزعه من صدور العباد ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالما إتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» [100] وأصل ذلك أن التدين أصله فكري عقدي تصوري أي أنه ـ كما أنف أعلاه ـ هو العود الذي بإستقامته يستقيم الظل وبإعوجاجه يعوج الظل. فإذا إنتزع العلم بموت العلماء وزهد الناس من بعدهم في طلب العلم من مظانه فإن الثمرة المحتومة هي إنتشار الجهل. وعندها يفسد التدين الفردي للناس كما يفسد تدينهم الجماعي. أليس لنا من ذلك صورة صحيحة من سنته عليه السلام إذ دعا على بعض أصحابه ـ لأوّل مرة وآخرها ـ بالقتل وهو في أوج غضبه لمّا أشاروا بإلحاح على أميرهم بالإغتسال بدل التيمم فمات وقال في ذلك «إنما شفاء العيّ السؤال» [101]. تلك صورة من الجهل بالدين وقعت وهو بينهم عليه السلام. وإنما غضب عليه السلام غضبا

---

[100] متفق عليه عن عبد الله إبن عمرو إبن العاص

[101] سبق تخريجه

ربما هو الأشد في حياته ودعا على أصحابه وهو رحمة للعالمين وبالمؤمنين رؤوف رحيم بسبب أن ذلك الجهل أفضى إلى قتل إنسان.

وقد سبق في هذا الكراس أنه لا شيء يغضب الله سبحانه من بعد الإشراك به أكثر من العدوان على الإنسان. العدوان هنا باطنه نصيحة ولكن أنى لطوية حسنة أن تشفع لصاحبها عندما يتعلق الأمر بعلم لا بدّ فيه من طلب ومثابرة وعندما يتعلق الأمر بحياة إنسان هو بناء الرحمان سبحانه؟ وبما أن الطبيعة تأبى الفراغ كما يقولون فإن مكان العلم الذاهب سيملأ بالجهل القادم ولا بدّ للناس من أسئلة عن دينهم ولا بدّ لهم من مفتين وعلماء ودعاة وفقهاء ومنسوبين إلى الدين والدعوة والعلم. ومن هنا فإمّا علم صحيح يجعل التدين راشدا أو جهل يجعله فاسدا. وإن أنسى فلن أنس مفتيا على فضائية مشهورة منسوبة إلى الدين والدعوة ممن فتحت أبوابها قبل زهاء عقدين لمن سموا الدعاة الشباب سألته إمرأة سورية تقطن ألمانيا عن جواز السفر إلى الشام حيث أن أباها يحتضر وليس معها زوجها عدا ولدها الذي لمّا يبلغ الحنث إذ أفتاها بالحرمة المشددة بسبب عدم وجود محرم معها وقد أخبرته أنها تسافر بالطائرة وهو يعلم هذا ولكن ما زاده بكاء تلك المسكينة إلا جهلا من فوق جهل وقضى والدها في الشام ولم تتمكن من زيارته وقد غابت عنه سنوات طويلات ورجع ذلك الجاهل المنسوب إلى الإسلام ويفتي الناس في دينهم إلى بيته فرحا مسرورا ووقر في أفئدة الناس الذين صدموا في تلك الليلة مثل صدمتي أن الإسلام دين الحرمان الذي لا يراعي شيئا. هذا مثال من أمثلة لا تحصى مما نسمع من الفضائيات أو نقرأ في وسائل التواصل الإجتماعي ولو كان لهذا الجاهل حد أدنى من العلم بالدين لجمع بين الأحاديث النبوية في شأن المحرمية

ليلفى أن النهي معلل بالخوف على المرأة وليس بالخوف منها كما وقر في ذهن هذا الجاهل وكما هو واقر اليوم في رؤوس كثيرة تظن إعتقادا أن الإسلام يصور المرأة مصنعا للشهوة الجنسية والفساد الأخلاقي فلا بد أن تمنع من الخروج إلا بحضرة محرم يحول دونها ودون إغوائها الرجال. وشتان بين دين يخاف على المرأة ويجعل حكمه معللا مقصدا وبين جهلاء يخافون من المرأة أن تنشر الفاحشة. هذا الحكم علته الأمن أو الخوف ولذلك أباح المالكية منذ قرون الحج للمرأة في رفقة آمنة فمتى أمنت المرأة أن يعتدى عليها وخاصة في زماننا هذا حيث أمن بري وبحري وجوي سقط هذا الحكم المعقول وليس هو تعبدي. وأمثلة أخرى لا تحصى من الجهل بالدين. والحقيقة أن من أكبر أسباب الجهل بالدين هو الجهل بمقاصده وعلله حتى شدد الفقهاء منهم إبن القيم وغيره كثيرون على أن المفتي الذي لا يحيط بعلم المقاصد يستل العلل ويلبسها محالها لا يباح له أن يفتي الناس ومثله الذي يجهل أحوال الناس وواقعهم ولكن إبتلينا سيما في هذا الزمان بمثل هؤلاء وإلى الله وحده المشتكى

الآفة الثانية
الإفلاس القيمي

أصل هذه الآفة حديثه عليه السلام إذ سأل الصحابة يوما عن المفلس؟ فقالوا : هو الذي ليس عنده مال ولا متاع. فصحح الصورة عليه السلام وقال لهم «المفلس من أمتي من يأتي يوم بالقيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه فطرح في النار.» [102] المعنى هو أن المؤمن ليس شكلانيا جامدا إذ هو يتلبس بأركان الإيمان ولكنه لا يرعى للإنسان حقا وهو حديث مخيف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وهو يصور آفة من آفات التدين غمرت كثيرين من أهل التدين. الإفلاس القيمي معناه هو الإيمان المزعوم مسلوب القيمة الأخلاقية المضافة إذ لا يحجزه إيمانه عن الولوغ في حرمات الناس وحرياتهم وأموالهم وأعراضهم. وهو تدين مفلس فعلا إذ يظن صاحبه إعتقادا أو تساهلا أن العبرة بالعلاقة بينه وبين ربه أما العلاقة بينه وبين الإنسان فلا عبرة

[102] رواه أبوهريرة وأخرج في الجامع الصحيح

بها وهو تصوير خطير جدا يسير في الإتجاه المضاد لشريعة الإسلام التي تخبرنا أن الظالم لنفسه ـ وليس لربه بالشرك أو للناس بالعدوان عليهم ـ مشمول بالمغفرة والرحمة وهو من أهل الجنة كما ورد آنفا في هذا الكراس. في حين أن الظالم لغيره من الناس لا يغفر له حتى يغفر له الناس الذين ظلمهم في الدنيا. وهذا محال أو شبه محال في الآخرة أو مقيد بقيود كثيرة إذ أنه يكاد ينعدم أن تجد يوم القيامة من يتازل عن حقه حتى من أمه أو أبيه أو أخته أو أخيه أو صاحبته أو بنيه بسبب ما يرى من أهوال يشيب لها الولدان. قد يكون بعض الناس من المتدينين غافلين عن هذا الإفلاس القيمي وأخطاره على التدين وأكل الحسنات ولكن أظن أن الجهل به هو الأعم الأغلب بين الناس بسبب ما تسللت إلينا من أفكار مسيحية كثيرة منها هذه اللوثة القاضية بأن العبرة بالعلاقة مع رب الناس أما العلاقة مع الناس فلا عبرة بها وهي فكرة يدحضها الإسلام دحضا عجيبا. سرى فينا هذا الخلق الكريه حتى أصبح كثير من الناس يفضلون التعامل مع غير المتدين أو مع غير الذي تظهر عليه علامات التدين الظاهرة إذ أصيب كثير منهم بلسعات من أهل التدين ولدغات أصحاب المظاهر التدينية وهي ظاهرة خطيرة إذ هي ترذل قيمة التدين عند الناس ويكر المتدين المفلس على المتدين غير المفلس وهي آثار سيئة

الآفة الثالثة
الإنشغال بالأسئلة الفارغة

أصل هذه الآفة بعض الأحاديث النبوية منها قوله عليه السلام «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[103] وحديث آخر يقول فيه عليه السلام «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما إستطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم وإختلافهم على أنبيائهم»[104]. ومن ذلك أنه أخبر الصحابة يوما بأنه الله فرض عليهم الحج فقال صحابي : أكل عام يا رسول الله؟ وهو يغضي عليه السلام كرها لسؤاله . لم يفهم الصحابي حركته عليه السلام وظل يسأله ثلاث مرات حتى غضب عليه السلام وقال له (لو قلت نعم لوجبت ولما إستطعتم). وأحداث أخرى من هذا القبيل ومن ذلك قوله عليه السلام «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه

[103] أخرجه الدارقطني عن أبي ثعلبة الخشني

[104] متفق عليه عن أبي هريرة

فهو عافية فاقبلوا من الله العافية فإن الله لم يكن نسيا» [105] والحاصل هنا هو أن المتدين الرشيد لا يشغل نفسه بما سكت عنه الشارع وهو كثير لا يحصى. ولكنه ينشغل بالمربعات الثلاثة الأولى التي ذكرها حديث الدارقطني أي الفرائض سواء كانت فردية أو تكافلية جماعية والحدود الخاصة بحسب النظم القرآني الكريم ـ لا بحسب ما وقر في أذهان الناس ومنهم علماء ودعاة ـ بالأسرة كما ورد في سورة البقرة والنساء والطلاق والمحرمات التي عني بها القرآن الكريم عناية خاصة فذكرها إما كلية عامة لتشمل الجزئيات والفروع بالقياس وغيره أو مفصلة.

تلك هي المربعات الثلاثة التي يحسن فيها السؤال لأنها محكمات. أما مربع المسكوت عنه وهو الأكثر كمية في الحياة فليس من شيمة المتدين الحصيف السؤال عنه إذ بين عليه السلام أن ذلك مفض إلى الهلاك والإهلاك وأصل ذلك قوله سبحانه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» [106] ومنها ما ورد في قصة البقرة في سورة البقرة إذ أن من أكبر معاني تلك القصة العظمى في تلك السورة العظمى هو المبادرة إلى الطاعة كلما كان الأمر واضحا جليا لا يحتاج إلى أسئلة فارغة. ولكن الإسرائيليين إنما مقتهم ربهم سبحانه بسبب عكوفهم على الأسئلة الفارغة ـ التي أسميها أسئلة البطالين والعطالين والفارغين ـ ومن يعكف على ذلك القبيل من الأسئلة فإنه لن يعكف قطعا مقطوعا على الأسئلة التي تزيد الإيمان

---

[105] أخرجه الدارقطني عن أبي الدرداء

[106] سورة المائدة - الآية 101

وتصحح التدين وترشد السلوك ومنها حتما محتوما الأسئلة النبوية العظمى والكبرى التي نخالها نحن اليوم أسئلة هرطقة أو زندقة أو فساد عقيدة أو إرتيابا وشكا من مثل سؤال إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ»[107] أو سؤال موسى الكليم عليه السلام إذ قال «رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ» [108]. ولكم يعكف اليوم شباب بالآلاف المؤلفة من المتدينين على مثل هذه الأسئلة وبذلك إنقلب سلم الشريعة في رؤوسهم وهذا هو ما يريده الشيطان قطعا مقطوعا إذ أنه عندما ييأس من تكفير مؤمن فهو يقلب له سلم إهتمامه ليجعل المقدم مؤخرا والمؤخر مقدما والصغير كبيرا والكبير صغيرا وبذلك يكون قد أفلح في الحيلولة دون ذلك المتدين ودون حصوله على أجور عظيمة كبرى

[107] سورة البقرة - الآية 260

[108] سورة الأعراف - الآية 143

الآفة الرابعة
الإنصراف عن الشأن العام

من أصول هذه الآفة قوله عليه السلام «لموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها» [109] وذلك إذ كان في مسير مع بعض أصحابه فمروا على موضع مزدان أخضر فيه ماء فقال أحدهم : لو ظللت هنا وعبدت الله سبحانه. ولعل الأخطر من ذلك كله هو أنه عليه السلام حذرنا تحذيرا هو الأعظم في تقديري إذ قال «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة أولها الحكم وآخرها الصلاة»[110] وهو بذلك يقول لنا أن الإنصراف عن الشأن العام ـ وهو الشأن السياسي بصفة خاصة في أيامنا هذه وبلساننا هذا ـ هو الثغرة الأولى التي يمكن أن يتسلل إلينا منها الداء الوبيل وليس هو سوى إنتقاض الإسلام الأعظم عروة عروة. وأول العرى إنتقاضا كما وقع في التاريخ الإسلامي المعروف هي عروة الحكم الذي فرط فيه المسلمون في تلك الأيام بوجه ما أو بتقدير ما فإلتقطه بنو أمية وفعلوا الذي فعلوا وكانت أول بدعة في الإسلام ـ لا إخال البدعة التي حذرنا منها عليه السلام

---

[109] أخرجه البخاري عن سهل الساعدي

[110] أخرجه أحمد وغيره عن أبي أمامة

سوى تلك البدعة وليس ما عداها ـ أي تحويل الحكم من شوري بالتراضي إلى فردي أو وراثي أو عصبي. إذ قال عليه السلام في حديث آخر يردف الأوّل «ثم يكون ملكا عضوضا ثم ملكا جبريا» [111]. ولا إخالني في حاجة إلى إعادة التذكير بأن الإنصراف عن الشأن العام تحت أي معذرة أو دعوى من أكثر الناس سيما من أهل الرأي والتاثير إنما هو المحرقة الداخلية التي تحيق بالأمة بأسرها. لا إخالني بحاجة إلى ذلك إذ أن واقعنا الحاضر هو صورة شاخصة عن ذلك الإنصراف. ولذلك جاءت النصوص من الوحي الكريم قرآنا وسنة تترى بالمئات محرضة على عدم الإنصراف إلى خويصة النفس وترك الشأن العام. من ذلك آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والنصيحة وغير ذلك حتى إن آية التوبة 71 (آية إجتماع المؤمنين والمؤمنات تكافلا على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [112] لم تعف منها المرأة نفسها وهي التي قد تكون مشغولة ببيت أو ولد أو رضاع أو حمل أو غير ذلك. وعلى ذلك المنوال سار الصحابة الكرام مع نبيهم عليه السلام وبعده. وما جاء الحديث عن الأعراب في القرآن الكريم حديثا ميالا ولو ميلا طفيفا إلى الدون سوى بسبب أن أكثرهم ـ وليس كلهم طبعا ـ ينصرف إلى شأنه الخاص فلا علاقة له بالحاضرة حيث تدار الأمور وتدبر الأشياء. وهو ما دعا أحد الصحابة من بعد ذلك إلى أن يقول أننا كنا نعد التعرب كفرا أي كنا نعتبر التخلف عن الحواضر والمشاركة كفر نعمـــة.

---

[111] أخرجه أحمد عن النعمان إبن بشير

[112] سورة التوبة - الآية 71 «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

ألا يكفي أن يحتضن الكتاب العزيز سورة مكية سماها هو نفسه سبحانه سورة الشورى وأمر رسوله نفسه عليه السلام بأن يشاور الناس في الأمر العام في سورة آل عمران؟ ألا يكفي أن كل الأوامر وكل النواهي لم ترد إلا بصيغة الجمع حتى في الأمور التي لا يمكن الإشتراك فيها مع الناس من مثل التقوى التي هي عبادة قلبية داخلية وعبادة الصيام التي يغلب عليها الطابع الفردي؟ ألا يكفي أن جذوع شجرة الإسلام الأربعة تكافلية الأداء تضامنية الإشتراك فمن الصلاة التي فرضت جماعة مرة واحدة في الأسبوع وظل الحث على ما عداها في سائر أيام الأسبوع كبيرا ويحمل أجورا أكبر إلى الصيام الذي لا يكون إلا في زمن واحد وبتعليمات واحدة ومن الزكاة التي حتى لو لم تلتزم زمانا واحدا فإنها تحمل مكاييل واحدة إلى الحج الذي لا يكون إلا في جماعة وفي زمن واحد ومكان واحد؟ ألا يكفي أن أولئك الثلاثة الذين تخلفوا عن واقعة تبوك (خلّفوا بلغة القرآن) خضعوا لأقسى عقوبة في الإسلام وهي عقوبة نفسية جعلت الناس تقاطعهم زهاء شهرين كاملين ثم إلتحق بهم أزواجهم مقاطعة؟ هل هناك عقوبة نفسية أشد من هذه على النفوس؟ ما كان ذلك سوى لأنهم تخلفوا دون إرادة تخلف منهم ولكن بسبب عدم ضبط لعامل الزمن فحسب. الأدلة من الوحي العظيم على أن الإنصراف إلى خويصة النفس سيما من الناس كلهم وترك الشأن العام يعيث فيه المفسدون فسادا من أكبر كبائر الذنب لا تحصى ولا تعد وهي أدلة نصية جزئية وأدلة كلية عامة. فلا بد إذن من تدين يجمع في وسطية جميلة معتدلة بين الشأن الخاص الذي لا يدار إلا بصاحبه (بر الوالدين مثلا) وبين الشأن العام الذي يتوزع هو بدوره على حقول لا تكاد تحصى. ولذلك جاء التعبير فيها بالنفير في آخر سورة التوبة

وذلك ليشعرنا أن الحياة نفير وعمل وجد وكد وجهاد وسعي وكدح. وأن ذلك النفير لا يستحوذ عليه حتى الجهاد الذي تتحرر به الأمة بل يشاركه في ذلك النفير إلى التفقه في الدين والتعلم وغير ذلك مما لا مناص لأي أمة منه. ولا مناص من القول مرة أخرى أن الإنصراف إلى خويصة النفس في غير مبالاة ولا إكتراث من الناس في عامتهم بالأمر العام عقيدة مسيحية تنسجم مع المسيحية ولكنها تسللت إلينا كما تسللت أفكار أخرى في غفلة منا والإسلام لا يحتملها لأنه يقود أمة أخرجت للناس هداية إخراجا. وأظن أن الأمة الربان إذا تخلت عن دورها الريادي حكما بالعدل بين الناس فسدت البشرية جمعاء قاطبة فساد أكل غاب ملحه. لا شيء يسير بلا ربّان في هذا الوجود فالله هو رب العالمين والأمة هي ربة الناس تهديهم والقلب هو ربّان الإنسان يقوده وما مصير شيء لا ربّان له عدا التيه. من شدة حرصه عليه السلام على قيمة الإجتماع بين أبناء الأمة أنه قال ذات مرة حديثا لم يعد إليه وهو حديث التحريق. كيف وهو رحمة للعالمين؟ بل كيف وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم؟ بعد الصلاة في ذات يوم قال للصحابة «هممت أن أستخلف عليكم وأختلف إلى أناس في عوالي المدينة يتخلفون عن الجماعة فأحرق عليهم بيوتهم» [113].

الإسلام عنوانه الإجتماع على الأمر العام والشأن التكافلي فمن أخطأ هذا العنوان فقد أخطأ الإسلام حتما

[113] متفق عليه - أخرجه أحمد

الآفة الخامسة
إغتيال فريضة التجديد بإسم البدعة

هذه آفة مستعصية بسبب إنغراسها في رؤوس أكثر المتدينين اليوم. أصلها حديثان يراهما المتدين الجاف على طرفي نقيض فيأخذ بأحدهما ويترك الآخر في حين أن المتدين المعتدل يجمع بينهما في توفيق تأليفي عجيب. الحديثان هما : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها» [114] والحديث الثاني هو«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» [115]. هناك حديث ثالث يمكن أن يساعد في عملة الجمع التأليفي بينهما وهو قوله عليه السلام «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» [116] لك أن تكتشف أن الظاهر متعارض بين تجديد يأتي بجديد وبين تحذير من بدعة أو سنة سيئة تخلف أوزارا. أجل. ولكن لا يكون ذلك معوقا عن الفهم الصحيح عند من يفقه هندسة الإسلام

---

[114] أخرجه أبو داود وغيره عن أبي هريرة

[115] متفق عليه عن عائشة

[116] أخرجه مسلم عن جرير إبن عبد الله

المتركبة من مساحتين كبريين : مساحة التعبد التي لا إجتهاد فيه ولا سننا جديدة ولا تجديد وهي مساحة العقائد والعبادات لأنها منطقة التوقيف وهنا تكون البدعة شاقة وقد تفضي إلى الكفر. ومساحة المعقول التي خلت من الأوامر والنواهي إلا قليلا وإنما إمتلأت بالكليات الكبرى والإجتهاد هنا والتجديد وسن السنن الجديدة هو المطلوب. الصحابة فقهوا هذا فجددوا وإخترعوا وإجترحوا في المساحة الثانية ما به تجدد الإسلام وتقدمت الأمة وتطور سعيها وأمسكت بتلابيب النهضة فصنعت العلوم وأصبحت قبلة الناس كلهم أجمعين تقريبا ذات يوم في بغداد بصفة خاصة وعلى إمتداد قرون طويلة. ما تغير الدين الثابت إذ ظلت العقائد هي هي والعبادات هي هي وظل المعلوم من الدين بالضرورة معلوما هو هو. وسيظل ذلك كذلك لأن الدين محفوظ بإرادة إلهية. أما المساحة الثانية فإن المبادرة فيها والمسؤولية تقع علينا نحن فإما أن نملأها بما يجب لأنها منطقة فراغ وعفو بالضرورة فنتقدم (الفقه السياسي والمالي والإجتماعي والإداري والعلاقات الخارجية والفقه القانوني والفنون والمهارات والإبداعات وغير ذلك مما ليس لنا فيه دين ولا سنة عدا التوجيهات الكبرى التي يتسع لها كل زمان وكل مكان) وإما أن نظل متخوفين من الوقوع في البدعة في غير مكان خوف من البدعة ـ لأنها مساحة الإبتداع وليست هي مساحة الإتباع ـ فنجمد ونحن نحسب أننا نحسن صنعا. هل تحرج الفاروق ومن معه من الصحابة وهم يقرون ما نسميه نحن اليوم صلاة التراويح ولم تكن سنة نبوية حتى لو صلاها عليه السلام بالناس ليلة واحدة أو ليلتين؟ وهل أصابه مثل ذلك لما إجترح بإجماع الصحابة تأريخا إبتدائيا للأمة في إثر إجتماع حاسم بين الصحابة ترجح فيه التأريخ بالهجرة وليس بالميلاد

ولا بالبعثة ولا بالموت؟ وهل كان مثل ذلك عندما صنع المسلمون منابر لخطبة الجمعة تتركب من أكثر من ثلاث درجات بمثل ما كان منبره عليه السلام؟ وغير ذلك لا يحصى في التاريخ الإسلامي والغرض هنا ليس إحصاؤوه إنما الغرض مجرد التمثيل للتدليل على أن الإسلام مساحتان: مساحة إتباع لا إبتداع فيها وهي مساحة العقائد والعبادات ومساحة إبتداع لا إتباع فيها لأنه ليس لنا في أكثرها سنة تتبع. كل تلك الأمور تسمى سننا حسنة ـ أي مناهج لأن مما زاد الطين بلة غربتنا عن اللسان العربي ـ علينا إختراعها. أما السنة الأسوأ والبدعة الضالة المضلة الحقيقية التي حذرنا منها عليه السلام فما هي سوى تبديل النظام السياسي في الإسلام من التشاور والتراضي والتبايع الحر إلى إكراه وتوريث وملك عضوض أو جبري. تلك هي البدعة التي حذر منها حديثه آنف الذكر «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». ولذلك أردف ذلك بحديث آخر ضعف بعضهم سنده ولكن متنه صحيحا صحة كاملة لإنسجامه مع كليات القرآن الكريم وذلك عندما قال «أوصيكم بتقوى الله عز و جل والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى إختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور» [117] .فهل يتذكر الشباب المتدين أن مكان البدعة هو الموقوف وليس المرسل بلغة الأصوليين؟ هل يعودون إلى المنهاج الراشدي ليروا كيف كان الصحابة وهم خير القرون قطعا مقطوعا يعالجون الجديدات والمتغيرات؟.

---

[117] أخرجه الترمذي وغيره عن العرباض إبن سارية

الأمة لا تموت ولا تعقر أن تنجب على رأس كل مائة عام كما بشر عليه السلام ووعد ـ ووعده الصادق الحق ـ من يجدد لها دينها وليس أمر دينها كما حاول تحريف ذلك الذين سماهم هو نفسه عليه السلام (الغالين المحرفين) أي الذين إستكثروا على الإسلام وأمته فضيلة التجدد. مجددان اليوم تراهما عيني : المجدد الأول هو الصحوة الإسلامية التي أعادت للشريعة ذكرها وأقضت مضاجع أعداء الإسلام والمجدد الثاني هو الثورة العربية التي سميت ربيعا عربيا وهي كذلك بإذن الله.

التجديدان من مشكاة واحدة إذ هما يجددان لأمة الإسلام دورها ويعملان على إستعادة مجدها التليد ولكن ليس بقالة : كن فيكون ولا بمن لا يصبر ومن لا يقاوم ولكن بسعي أجيال من خلفها أجيال وقرون من بعد قرون. فكن أنت فارسا من فرسان التجديد ولا تترك للشيطان ـ إنسه وجنيه معا ـ فرصة ليثنيك عن فريضة التجديد الإسلامية العظمى تخويفا لك من الإبتداع إذ مجال الحياة ـ وليس الدين بمعناه الأصلي الحقيقي ـ هو مجال الإبتداع

الآفة السادسة
هيبة الناس أخشى عليك من هيبة الحاكم

هذه الآفة تتعلق في الأعم الأغلب بمتصدري المشهد الديني الدعوي إذ أن بعضهم يبيع نفسه صادقا مخلصا إبتغاء مرضاة الله سبحانه إذ يعمل بهذا الحديث النبوي الشريف «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى حاكم جائر فأمره ونهاه فقتله» [118] أو بالحديث الآخر «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» [119] ولكن بعضا من هؤلاء أنفسهم يجبنون جبنا عجيبا عندما يتعلق الأمر بقول الحق ـ أو ما يراه هو كذلك أو صوابا أو أحكم ـ في وجه الناس وخاصة عندما يكون أولئك الناس من أهله أو حزبه أو تياره الفكري أو هم له أشياع بوجه ما. كنت أقرأ مثل هذا وأنا شاب أدمن القراءة وطلب العلم وأستعجب وأستغرب كيف يكون هذا. كنت أظن غرارة أن الذي لا يهاب السلطان الجائر والحاكم الظالم لا يهاب بالضرورة غيره من الناس ممن لا سلطان لهم ولا قوة. فلما كبرت عرفت أن كاتب ذلك الكلام عركته التجارب وهو إذ نبه إلى ذلك فهو من رحم الخبرة وليس

---

[118] أخرجه الحاكم عن جابر

[119] أخرجه أبو داود وإبن ماجة وغيرهما عن أبي سعيد الخدري

تخيلات. كنت أظن أن عدد الذين يهابون الناس أقل ـ إن وجدوا أصلا ـ من عدد الذين يهابون السلطان الجائر. كانت بوصلتي في تلك الأيام متوجهة إلى أن الفساد منبعه الحكم وموطنه السلطان ومهجعه هناك فحسب. لما كبرت أدركت أن الفساد يفرخ ويبيض حتى في غير تلك المهاجع وربما بما هو أشد وأنكى ثم أدركت ما يعنيه عليه السلام بحديثه القائل «لا يكن أحدكم إمعة» [120] وقبل ذلك تحذيره سبحانه لنبيه عليه السلام «واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك»[121] ومواضع أخرى من الوحي الكريم تحذر الأنبياء أنفسهم والدعاة والعلماء من خلفهم أن يوجهوا بوصلاتهم في إتجاه السلطان فحسب غافلين أن السلطة الشعبية والتأثير الإجتماعي لهو أخطر وأكبر. ولذلك تكون تلك السلطة الإجتماعية معول خير إذا إتجهت إلى الخير ومعول شر إذا إتجهت إلى الشر.

على المتدين ـ سيما ممن يتصدر المجالس وينظر منه التوجيه والإرشاد ـ أن يظل متوازنا معتدلا لا يميل إلى مقاومة الشر إذا صدر من السلطة الحاكمة فحسب غافلا عنها إذا صدرت عن الناس أو ممن يملؤون الدنيا اليوم والمجالس تحذيرا من عذاب القبر وأهوال يوم القيامة ولا تسمع منهم كلمة واحدة في ذات يوم عن الفساد السياسي والمالي والإجتماعي ومشكلات الإنقسام والتمزق والتفرق وما يطحن الناس وهم خارج القبور. ذلك هو التدين الوسطي الذي يخلص وجهه لله وحده سبحانه فهو يحارب الفساد من دون النظر إلى المفسد وموقعه. ذلك هو معنى

---

[120] أخرجه الترمذي عن حذيفة إبن اليمان وضعفه الألباني وغيره

[121] سورة المائدة - الآية 49

أن العقيدة الإسلامية عقيدة توحيدية صارمة توحد جهد الإنسان المقاوم الكادح لتكون الحياة كلها لله وحده سبحانه لا يجامل فيها المتدين هؤلاء لأنهم أهله أو أبناء عشيرته دما أو فكرة ولا يهادن فيها أولئك هلعا وجزعا. صحيح أن الفساد عندما يصدر عن الفراعنة الجدد يكون أشنع أثرا ولكن الأصح من ذلك هو أن يكون المتدين معتدلا في مقاومته فلا يهاب صاحب سلطان إذا فسد أو أفسد ولا يهاب الناس كذلك إذا فسدوا أو أفسدوا. أما الذين يتلمسون الأعذار الواهية لأولئك أو هؤلاء على حد السواء فإن أقوالهم وأعمالهم عادة ما لا تبرح الأفواه التي خرجت منها. بل إن الذين يقاومون الحاكم الجائر لا يهابونه وإذا تعلق الأمر بالناس هابوهم فإنهم يعرضون أنفسهم لأكبر المهلكات وهي مهلكات الغرور والإعجاب وما عرف اليوم في هذا المناخ الدعوي الموبوء بصناعة الجمهور لهذا الداعية أو ذاك العالم. إذا ركن الداعية أو العالم إلى جمهور يرضى عنه فلا يحدثه إلا بما يريد سماعه فقد باء بإثم كبير ووزر أكبر. لا جمهور لمن يتصدر المجلس العلمي ممن يسميهم إبن القيم بالموقعين عن رب العالمين سبحانه. جمهوره هو الناس كلهم فهو ينظر إلى الفساد ولا ينظر إلى المفسد أو إلى مصدر الفساد. بعض أولئك يحتفظون بمكانة لدى الناس فهم لا يشوشون على تلك المكانة ومن ذا فإنهم يغضون الطرف عن الفساد الآتي من الناس وهذا هو عين الرياء المحبط للأعمال. وإنك للاف اليوم أن للسلفيين شيخ يملؤون مجلسه وهم جمهوره وللصوفيين مثل ذلك وللشيعة مثل ذلك ولهذه الجماعة أو تلك مثل ذلك وما ذلك سوى لأن أغلب أولئك ـ وليس كلهم طبعا ـ يحدثون ذلك الجمهور بما يلقى فيهم هوى ويظل جمهور الناس من غير المنتمين في حيرة حائرة. هذا المشهد بدعي دون ريب عندي ولا أنكر على أهل الإنتماء إنتماءاتهم وولاءاتهم مادامت تخدم الإنتماء الأحق والولاء الأعظم ولكني

أنكر إتخاذ عالم أو شيخ أو إمام أو فقيه مذهبا لا ينفتح ولا يستورد فيتكون من ذا جمهور خاص به وبذلك يسجن ذلك

الرجل نفسه في جمهوره ومذهبه فيكون أسيرا له لا يحدثه إلا بما يرضيه. هذا مشهد ديني نعيشه اليوم

الآفة السابعة
الإصلاح الأعمى جريمة

الإصلاح فريضة محكمة وشريعة متبعة وسنة معلومة وهي التي عادة ما يعبر عنها القرآن الكريم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الدعوة إلى الخير أو النصيحة في السنة أو غير ذلك مما تختلف ألفاظه ومسماه واحد. وظيفة الإصلاح العظمى في الأمة الإسلامية هي نبذ التفرق وليس نبذ التنوع. من يعيد إستقراء آيات آل عمران التي تكثفت فيها الأوامر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدرك بيسر أن داء التفرق إنما بلسمه الشافي هو تكفل أمة من الأمة بهذه العزيمة المفروضة أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن خيرية الأمة الإسلامية نفسها مرتهنة بإقترافها تلك العزيمة وإلا فلا خير فيها. عدا أن الإصلاح الذي هو فريضة إسلامية وضرورة واقعية مقيد تقييدا صارما من الشريعة نفسها بمنهاج إصلاحي جاءت كلماته في الكتاب والسنة تترى لتشكل صرح ذلك المنهاج فمن تقيد بذلك المنهاج فهو المصلح ومن تنكب ذلك المنهاج فهو المفسد حتى لو تسربلت طويته بالحسن حقيقة لا دعوى فارغة. الحق عندي أن منهاج الإصلاح أولى في الإسلام من فريضة الإصلاح نفسها. لا إصلاح إلا بمنهاجه المرسوم كما أنه لا تقبل صلاة إلا بطهور ولا إسلام إلا بشهادة التوحيد. ليس أربي

هنا إستجماع الكليات التي جاءت ترسم منهاج الإصلاح فهي مرسومة في الكتاب والسنة والسيرة والخلافة الراشدة وتمثلها المصلحون الحقيقيون. إنما أربي هنا إعادة الربط الوثيق بين الإصلاح وبين منهاج الإصلاح. من تلك المفردات ذكرا لا إستكمالا : الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن واللين والرفق وغير ذلك مما ورد. ولذلك حبر العلماء من القديم شروطا لتغيير المنكر منها أن المنكر لا يغير إلا إذا كان منكرا فعلا بالمنطق الشرعي وليس بالمنطق العرفي أو اللغوي. فلا منكر إلا ما أنكره الشرع وهي التي أسماها الكبائر وهي الذنوب العظمى التي تقترف في كل الحقول فهناك كبائر سياسية وكبائر إقتصادية وكبائر إجتماعية وكبائر في العلاقات الدولية وكبائر في القانون والإدارة وغير ذلك.

ولكن لأسباب تاريخية وسياسية معروفة عولجت الكبائر في تراثنا على أساس الفردية لا الجماعية وعلى أساس الدين وليس على أساس الدنيا وهو من آثار ما تسلل إلينا من المسيحية وهو كثير ولكن لا يبصره كل من هب ودب إلا من درس وعالج وصبر. لم يبرح الوحي منكرا يمكن أن تقترفه البشرية إلا وأشار إليه ولو بكلية عامة وهذا هو ديندنه في الأعم الأغلب من مثل الحديث عن الفساد المتكرر في القرآن الكريم مرات فهو فساد سياسي ومالي وإجتماعي وإداري وقانوني وغير ذلك. فلا منكر إذا إلا ما إستنكرته الشريعة قرآنا وسنة سواء رتبت عليه حدودا وعقوبات أو وعيدا أو لعنا أو عذابا أو غضبا أو غير ذلك. من شروط تغيير المنكر كذلك أن يغلب على ظن أهل التغيير أنهم قادرون على تغيير ذلك المنكر بحيث يؤسس للمعروف في محله وبمثله فإذا غلب على ظنهم أن زوال المنكر قد يؤسس في محله منكرا مثله أو أكبر منه فإن تغيير المنكر هنا مفسدة وليس محمدة. نبهنا

سبحانه في هذا المنهاج بقوله «وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» [122] وبمثل ذلك ـ كما تقدم معنا ـ أجحم عليه السلام عن إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم إذ علم أو غلب على ظنه أن ذلك قد يؤسس لمنكر عنوانه عدم قبول الناس لذلك التغيير الديني الجسيم في أذهانهم بسبب حداثة عهدهم بإيمان أو شرك سيما أن المشركين يعظمون الكعبة تعظيما حقيقيا. فلا يكون الإصلاح محمودا مطلوبا حتى يكون المنكر منكرا حقيقيا لنا فيه من الله سبحانه برهان ساطع لا يتسلل إليه الإحتمال وحتى تكون القدرة على تغييره آمنة بحيث لا يؤسس لمنكر مثله أو أكبر منه لأن العملية تكون عبثية وإستنزافا للطاقات بلا فائدة. ذلك هو معنى تحمل المحل لتطبيق الحكم الشرعي وقد تقدم معنا هذا المعنى في محور آنف ولذلك لا تكون الدعوة إلى الله كما جاء في آخر سورة يوسف إلا عن بصيرة وهي بصيرة العقل والوعي والفهم والفقه وهو فقه لا يقتصر على النص الشرعي حتى لو كان محكما ورودا ودلالة بل هو فقه الفهم تهذيبا وتشذيبا وفقه المحل أي فقه الواقع فما لا يتحمله الواقع فلا يغير ولا يستبدل لأن الأمور في الحياة مبناها التوازنات والتوافقات والتصالحات إذ لا يتمحض خير بالكلية إلا وفيه شر ولا يتمحض شر بالكلية إلا وفيه خير. فإما أن يفقه هذا حق الفقه أي أن لزوم منهاج الإصلاح أولى من الإصلاح نفسه وإلا فإن الإصلاح المزعوم يكون جريمة ومفسدة

[122] سورة الأنعام - الآية 108

الآفة الثامنة
أمة بلا عدول ورواحل لا مجد لها

أصل هذه الآفة بعض الأحاديث منها قوله عليه السلام «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وإنتحال المبطلين»[123] وكذلك قوله عليه السلام «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» [124] وقوله الذي تقدم معنا كذلك «فضل العالم على العالم كفضلي على أدناكم» [125] ونصوص أخرى ربما نتعرض لبعضها هنا في هذه الفقرة . المقصود من هذه الآفة أنه على الأمة إعداد عدول ورواحل وعلماء ومفكرين وأهل رأي في كل التخصصات والمهارات بغرض حفظ الأمة من الإهتراء وأشد أصناف الأهتراء الذي نتعرض له منذ قرون سحيقة هو التمزق والتفرق والتشظي بل تعدى ذلك إلى إحتراب وتقاتل بين المسلمين أنفسهم داخل الأمة وداخل البلاد الواحدة. وهو معروف لا يحتاج إلى دليل بل إن نكبة التفرق التي منينا بها مبكرا جدا في تاريخنا هي جرثومة الفساد

---

[123] أخرجه أحمد وغيره عن عدد من الصحابة

[124] متفق عليه

[125] سبق تخريجه

الأولى التي ظلت تفعل فينا أفاعيل الفساد إذ تسللت إلينا أضراب من الكفر والنفاق تسربلت بالعلمانية والتقدمية والديمقراطية والإنسانية والحرية وغير ذلك مما هو معروف ثم تمكنت من ناصيات الحكم والتوجيه وملكت السلطة والثروة والسلاح وملكات التعليم والإعلام وأعملت فينا معاول الهدم الثقافي وها نحن اليوم نجني كل ذلك عدا أن بعضا منا من أصحاب الذاكرة القصيرة لا يعزون ذلك ولا يرجعونه إلى أولى الأثافي أي ما حذر منه عليه السلام : إنتقاض الحكم وتحوله إلى ملك عضوض ثم جبري. تخلي العدول عن وظائفهم وأدوارهم حتى لو أخضعوا لسياسة العزل والتهميش يثمر كما حذرنا هنا عليه السلام إنتفاخ فئات ثلاث أخرى. هي فئة المغالين بسبب التحريف (تحريف الغالين) وفئة الجهلى المؤولين (تأويل الجاهلين) وفئة المبطلين المنتحلين (إنتحال المبطلين). هذه الفئات الثلاث ستظل في الأمة حتى يوم القيامة ظلالة وجود اليهود والنصارى إذ كذلك شيد سبحانه كونه على التدافع والتداول وهو ما يحقق التوازن فقها سننيا وعلما سببيا يتنكبه أكثرنا اليوم. تزهر الأمة وتستعيد مجدها طردا مع إعتلاء فئة العدول وعلو كلمتها والعكس بالعكس صحيح. ستظل الأمة مخترمة من فئات غالية بسبب جمودها وقلة بضاعتها الفقهية وتورم حزامها العلمي. وبمثل ذلك من لدن فئات مبطلة تظهر الإسلام والإيمان والعبادة ولكنها تمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية فهي تحاول صناعة زيتونة غربية بسبب أن الغرب اليوم هو الغالب المتفوق. وبمثل ذلك من لدن فئات جاهلة تسيء التأويل. فئة العدول هي الفئة الملتزمة بالوسطية المتوازنة المعتدلة فهما وإصلاحا ومعالجة وهي المسؤولة عن ذلك الإصلاح وهي تقاوم الفئات الثلاث الأخرى ليس بغرض إفنائها ولا

بالقوة العسكرية إلا إذا رفعت تلك الفئات القوة العسكرية في وجه العدول ولكن بغرض توسيع الدائرة الوسطية في الأمة وتغذيتها وتجفيف منابع الغلو والجهل والإنتحال.

المهمة صعبة ولكنها ليست مستحيلة وتحتاج إلى شروط وجود وشروط إنضاج. ولذلك نبه عليه السلام إلى حقيقة إجتماعية حضارية في الناس عامة وهي ظاهرة ندرة الرواحل أي الزعامات والقيادات والعدول الذين يقودون الناس إلى الخير وهو أمر لا يخص الأمة الإسلامية فحسب. ذلك أن الذي يجمع في الناس عامة بين قيمتي القوة والأمانة بتعبير القرآن على لسان إبنة شيخ مدين أندر من الندرة وحتى في الصحابة الكرام وهم يتربون في أعظم حجر وينهلون من أدسم لبن إذ لم يبرز منهم من جمع بين قيمتي الحفظ والعلم بتعبير يوسف عليه السلام إلا قليل.

كثير من الناس أهل أمانة وحفظ بل هم الأكثرية في الأمة الإسلامية وبعض الناس أهل علم وقوة مما جعل الفاروق يستعيذ بالله سبحانه من بطش الفاجر وعجز الثقة. أما من يجمع بين القيمين ليكون راحلة أو عدلا يقود الأمة ويتزعمها إصلاحها فهم قليل من قليل. ولذا علينا التنبه إلى هذه الظاهرة الإجتماعية أو الحقيقة الحضارية وما ذا علينا لو أعددنا معاهد وكليات ومدارس ومحاضن تقوم على إعداد القيادات والزعامات والرواحل والعدول؟ المهمة ممكنة بالتكافل والمال والصبر وقطعا لن يسقط علينا أولئك من السماء مهديا منتظرا ولن يكون واحد منا كذلك في إثر رؤيا منامية. من الحقائق الإجتماعية أن الناس يقادون براحلة أو عدل أو زعيم فهو يقودهم إما إلى الخير أو إلى الشر. ليس معنى ذلك التهوين من العمل الجماعي وقيمة الشورى والتراضي والمؤسسية حاشا لله فتلك قيم أولى في

الشريعة. ولكن المعنى من ذلك هو التنبه إلى أن الصناعات القيمية العظمى إنما صنعها أفراد تربوا تربية صحيحة ثم توفرت لهم ظروف نشأة صحيحة ثم شقوا طريقهم يستعينون بأهل الرأي ولكنهم في توكل عجيب على ربهم إستبدت بهم قيمة الراحلة والعدل وأقضت مضاجعهم أحوال الأمة. ومن هؤلاء قص علينا القرآن الكريم قصة ذي القرنين ورأينا في تاريخنا كيف كان الفاروق ذلك الجبل الأشم الذي يظل إسمه ومشروعه صداحا في آفاق المصلحين حتى يوم القيامة ورأينا ملحمة صلاح الدين الأيوبي وغيرهم كثير. الناس يحتاجون إلى رواحل وعدول وقيادات وزعامات ذلك أن الناس في عمومهم لا يصلحون إلا بمصلح ولذلك قال الشاعر : لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ـــ ولا سراة إذا ما جهالهم سادوا

الآفة التاسعة
مهلكات ثلاث

أصل هذه الآفة هو حديث نبوي قال فيه عليه السلام «ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه» [126]. جماع هذا الثلاثي هو العكوف على خويصة النفس ونبذ التكافل والتعاون والتضامن وما يورثه ذلك في العادة من غرور وعجب ورياء وعكوف على عبادة الذات سيما إذا جمع الإنسان مالا أو جاها بسبب عبادته لنفسه وبخله وعدم إنخراطه في مشاريع الإصلاح المالي والإقتصادي والإغاثي. الشح فينا أصيل لقوله سبحانه «وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ» [127] ولكن المنكور هو طاعة ذلك الشح بحيث ننبذ الخير وفعله والإيثار وإقترافه. والهوى فينا أشد أصالة ولكن المنكور هو إتباع ذلك الهوى بحيث يكون المرء عبدا لهواه كما أخبر سبحانه «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» [128] والرياء يغشانا والعجب ما منه من مناص ولا مفر ولكن المنكور هو إستبداده بنا حتى نقترف أكبر

---

[126] أخرجه الطبراني عن إبن عمر

[127] سورة النساء – الآية 128

[128] سورة الجاثية – الآية 23

المكاره عند الله سبحانه أي الكبر الذي قال فيه عليه السلام حديثا يبعث الخوف والهلع والفزع «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[129].

هي آفات نفسية ومهلكات قلبية وهي الأخطر كما مر بنا ذات مرة في هذا الكراس أن آثام القلب أشد خطرا على الدين من آثام الجوارح ومثل ذلك طاعاته فهي أكثر أجرا من أجر الجوارح. القلب هو ربان السفينة البشرية فإن صلح الربان صلحت السفنية ونجا من فيها وإن هلك الربان فالسفينة ومن فيها أهلك وأهلك. ألم يعتب سبحانه على بني إسرائيل إتباعهم لشهواتهم وأهوائهم حتى إنهم تحيلوا على الله نفسه سبحانه في قضية الصيد الذي حرمه عليهم في يوم السبت الذي جعلوه هم لأنفسهم عيدا؟ ألم يحرم عليهم الشحوم فإستحلوها زيتا معصورا؟ ألم يسحب منهم الإستئمان والرسالة بسبب أنهم تخلوا عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ قال عنهم «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [130] ؟ هي مهلكات قلبية وآفات نفسية خطيرة تحبط عمل المتدين بل تحبط التدين نفسه. ألم يخبرنا سبحانه عن الأحبار من بني إسرائيل أنهم كانوا لا يلجمون شهواتهم في أكل أموال الناس بالباطل فقال فيهم موجها الخطاب إلينا نحن ـ أي إلى نظراء أولئك فينا أي متصدري المجالس الدينية والعلمية والدعوية ـ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» [131]. كل ذلك مما ورد في المرآة الإسرائيلية السالفة لتحصين هذه الأمة ومتدينيها من الوقوع في آفات الشح المطاع والهوى

---

[129] أخرجه مسلم عن إبن مسعود

[130] سورة المائدة – الآية 79

[131] سورة التوبة – الآية 34

المتبع والإعجاب رياء. ولا شك أن المتدين سواء تصدر المجلس أو كان من عامة الناس معرض لمثل ذلك فقد يعجب المرء بتدينه أو بعلمه أو بحديث الناس عنه فتكون الطامة وهي الإحباط والعياذ بالله

المحور الخامس
نحو تدين أصيل معاصر

مقدمة عن التدين المعاصر
فقه الميزان

سبق أن أنف الذكر هنا في هذا الكراس بإقتضاب أن التدين الإسلامي الأرشد ـ كما ورد في المصادر التي تتحدث بإسمه وهي القرآن الكريم والسنة الصحيحة ولا شيء سواهما ـ يتركب من مادتين لا غنى للمتدين فردا وجماعة عنهما وهما : القرآن الكريم والميزان. ورد ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم نفسه ومن السنة كذلك. ولعل أبرز ذلك قوله في سورة الحديد «وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» [132] وقوله في سورة الشورى كذلك «اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ»[133] وقوله في سورة الرحمان

---

[132] سورة الحديد - الآية 25

[133] سورة الشورى - الآية 17

«وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ »[134] كما ورد في بعض المواضع قوله «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»[135] إذ جاءت الحكمة في مكان الميزان. والحاصل من كل ذلك هو أن الله سبحانه أنزل القرآن الكريم موقوفا من عنده ومحفوظا حركة حركة وحرفا حرفا وكلمة كلمة وآية آية وسورة سورة وأنزل معه ـ أو جنبا إلى جنب معه بالأحرى ـ الحكمة أو الميزان بحسب تصريف الكلمة في سياقها المناسب. ولئن إختلفت كلمة الباحثين في الغابر والحاضر عن المعنى الحقيقي للحكمة وللميزان. فمن قائل أن الميزان أو الحكمة هو السنة ومن قائل أنه السيرة ومن قائل أنه العقل الهادي إلى حسن التدبير والفهم والتنزيل فإن هذه المعاني موكوءة في آخر المطاف في دلالة واحدة هي ذلك العقل الرشيد الحصيف الذي يحسن الفهم ويجيد الفقه ويعرف الواقع أو المحل وما يتحمله وما لا يتحمله. وهو بذلك يجمع بين نص من الوحي يحمل حكما عقديا أو عمليا وبين عقل أرشد أحصف (فؤاد عقول بتعبير حبر الأمة) وبين المحل الواقعي الذي يراد إصلاحه بتنزيل ذلك الحكم الشرعي. ذلك العقل تمثل في النبي محمد عليه السلام خير تمثل فهو الراجح عقلا وهو المؤيد بالعصمة والوحي يسدده ويوحي إليه مع القرآن الكريم حديث السنة وعملها وإقرارها وغير ذلك «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[136] وغير ذلك مما ورد في مصدري الوحي المعصـــوم من مثل

---

[134] الهامش الثاني : سورة الرحمان آية من 7 إلى 9

[135] الهامش الثالث : سورة النساء أية 113:

[136] الهامش الرابع: أخرجه أبو داوود عن المقدام الكندي:

قوله سبحانه «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[137]. ذلك العقل هو عقل محمد عليه السلام عقلا راجحا برعاية الرحمان له سبحانه كما رعى عبده موسى إذ قال له «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»[138] ومحمد عليه السلام أولى بذلك لرسالته العالمية الجامعة الناسخة المهيمنة وعقلا معصوما بالوحي الذي قد يعاتبه إذا أخطأ في الدنيا وليس في الدين. إذ هو لا يخطئ في الدين أصلا لأن العصمة هي العصمة من الخطأ في الدين إذ الدين موقوف وحقه البلاغ. عقل محمد عليه السلام مركبا من الرجحان الطبيعي برعاية الله سبحانه ومن العصمة تمثل في السيرة بصفة خاصة. إذ أن طالب العلم عليه أن يميز بين السنة وبين السيرة إذ أننا ملزمون بالأولى دينا مدينا فهي تبين الدين وتشرح القرآن الكريم تخصيصا لبعض عمومه وتقييدا لبعض مطلقه وتفصيلا لبعض مجمله مما يتعلمه طالب علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة ومقامات التشريع والمشرع في حين أننا لسنا ملزمون بالأخرى عدا أن الأخرى ـ أي حقل السيرة الذي يشمل حياته حتى وهو على غير حالة النبوة عليه السلام ـ تحمل حقولا خصبة وثرة للمصلحين. ولذلك لم يهتم الناس منذ القدم بإسناد السيرة في حين أن إهتمامهم بالحديث والسنة تعدى الحدود حتى أضحى ذلك الإسناد (علم الرجال) شمسا بازغة وقمرا منيرا في علوم الدنيا كلها. الميزان هو إذن ـ أو الحكمة بالتعبير الآخر ـ هو الإهتداء في عمليات الفهم والفقه والتنزيل والتنفيذ والمعالجات في كل الحقول بالعقل النبوي الأرشد الأحصف إذ هو معصوم حتى في السيرة عدا أن السيرة معيارها الأصلح الزمان والمكان

---

[137] سورة الحشر - الآية 7

[138] سورة طه - الآية 41

لأنها تعالج أحداثا واقعية. فإذا عالجنا نحن اليوم قضايانا ومشكلاتنا التي بها نبتلى حتى نحسم بالمنهاج النبوي وبتدبر وتفكر وتشاور وتراض ورد إلى (الله ورسوله) حال الإختلاف والتنازع فإننا نصيب من ذلك الميزان أو الحكمة أوتارا كثيرة وأخلاقا عظيمة. الميزان بكلمة واحدة هو حسن فهم الوحي وجودة فقهه بجماع وعمق وشمول وكمال وتكامل بما يهيء إلى حسن التنزيل والتنفيذ وبما يجعل العملية الفقهية متجانسة الأعضاء ومتكاملة الأضلاع فهي نص يحمل حكما شرعيا عقديا أو عمليا يستقبله عقل متوازن معتدل وسطي غير مقلد ولا مبهور لا بسلف ولا بخلف فيستحيل واقعا يصلح محلا من المحلات المعطوبة. ذلك هو الميزان وتلك هي الحكمة ولذلك أقول دوما : القرآن الكريم وحده لا يكفي والميزان وحده كذلك لا يكفي. فلا مناص من جمعهما وجمع آلة التشاور والتراضي إليها . لم يساق هذا في صدر التدين المعاصر؟ يساق ذلك كذلك لأن التدين المعاصر في كل زمان ومكان ليس هو سوى الجمع بين الكتاب والميزان

كل النبوات معاصرة
وكل الرسالات تعالج عصرها

من أمثلة ذلك نبوة شعيب ورسالته إلى أهل مدين«وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ» [139] ووجه المعاصرة فيها أن القوم طغوا كثيرا في العدوان على حق الإنسان في ماله فنشأت طبقات مترفة تأكل جهود الناس وحرماتهم وتستعبدهم وتسترقهم وطبقات آخر محرومة من ثروة الأرض التي جعل الله لعباده بالسوية. معاصرة النبوة هنا هو معالجة ذلك الداء العضال لأن الدين في كل زمان ومكان إما أن يكون محررا للناس مما زجوا فيه من رق وإستعباد حتى لو كان ماليا إقتصاديا وإلا فهو عبث معبوث بل مخدر يلهي الناس عن قضاياهم الملحة الحارقة كما قال كارل ماركس بالتمام والكمال أن الدين أفيون الشعوب وهو يقصد المسيحية التي إستحالت في زمانه لعبة في أيدي رجال الدين يتقاسمون أغنامها مع القياصرة وهو محق في ذلك بالكلية وقد يتحول الإسلام نفسه إلى مثل ذلك. ولذلك حذرنا سبحانه في آية حملت النداء الحبيب الرفيق إلينا بصفتنا الرسالة الجمعية

---

[139] سورة هود – الآية 85:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وقال لنا «إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» [140]. الصيغة إخبارية والمعنى أن كونوا قوامين يا معشر المسلمين أن يتحول رجال الإسلام فيكم والمنسوبون إلى العلم إلى أحبار ورهبان يأكلون أموالكم بينكم بالباطل. وقد تسلل إلينا هذا الداء الذي هو آفة من آفات التدين يشترك فيها المتدين العادي البسيط الذي يعتقد أن (رجل الدين) بالتعبير المسيحي له عند الله حظوة فهو وسيط بينه وبين عباده. وهو تسلل عقدي مسيحي خبيث يفسد التوحيد الإلهي كما يشترك فيها الداعية أو العالم نفسه إذ يستغل مقامه في الناس فيأكل أموالهم بالباطل .

وجه المعاصرة إذن في رسالة شعيب عليه السلام أنها رسالة تعالج تحد خطير يشق المجتمع ويفرض الفرقة والتطاحن الطبقي ولم تغمض رسالة النبي شعيب عليه السلام عينها عن ذلك الداء المعاصر بإسم أنها رسالة دينية عقدية إلهية سماوية روحية قيمية لا شأن لها بما يطحن الناس. ومن أمثلة المعاصرة في النبوات رسالة لوط عليه السلام إذ دعا قومه بإذن من ربه سبحانه إلى مفارقة الشذوذ الجنسي الذي به يأتون «الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ» [141] ووجه المعاصرة في هذه النبوة هي أنها تعالج معضلة إجتماعية جنسية معاصرة تهدد قوم لوط بالإنقراض الجنسي فلما أبوا أخذوا على حين غرة فأهلكوا. وبمثل ذلك النفس المعاصر الذي يحرص على معالجة الداء الأعظم الذي يهدد البشرية في كل زمان وفي كل مكان جاءت

---

[140] سورة التوبة - الآية 34:

[141] سورة الأعراف - الآية 81:

النبوات تترى وحملت الرسالات معها معالجات لا تقف عند الدعوة إلى نبذ الشرك وتوحيد الله سبحانه بل تدعو إلى مقاومة الفساد المستشري في أولئك القوم وذلك هو معنى المعاصرة أي معالجة القضية المعاصرة التي تساهم في إهلاك الناس. ولا ريب في أن المتدبر للقصص النبوي في القرآن الكريم يلحظ بيسر أنه ما من نبوة ذكرت فيه إلا وهي تحمل المعالجة المناسبة للداء المعاصر ولكن بصيغة تحد لعل الناس يؤمنون. فكانت رسالة موسى عليه السلام ومعجزتها من جنس ما يتبرج به الناس في زمانهم أي السحر. فجاءهم بما يكون ظاهره السحر وباطنه الوحي الكريم فلما أيقن السحرة الذين كانوا أوفياء لمهنة السحر عندهم أنه ليس سحرا حتى وإن بدا ظاهره مثل ذلك آمنوا وقبلوا الصلب على جذوع النخل.

وبمثل ذلك جاءت رسالة عيسى عليه السلام إذ أرسله ربه سبحانه يبرئ الأكمه والأبرص وغير ذلك تحديا لما كان يعكف عليه قومه من ذلك كذبا وزورا ودجلا على الناس. وبالخلاصة فإنه ما من نبوة أو رسالة قصت علينا إلا وهي تحمل التحدي المعاصر لقومها وتعالج الداء الوبيل الذي يفتك في تلك الأيام بأولئك الناس. ذلك هو معنى أنه ما من نبوة إلا وهي معاصرة فإذا جاء الأمر إلى آخر رسالة خاتمة على يد صاحبها محمد عليه السلام لم تتخلف هذه السنة في وجهها المعاصر ولم يكن ذلك متعارضا مع طابعها الجامع من ناحية ولا مع خصيصتها العالمية الأخيرة من جهة أخرى. ذلك أن السرطان الوبيل الذي كان ينخر الأمة العربية في تلك الأيام هو سرطان التفرق والتمزق والأنفة والكبر والتأبي عن كل أشكال الإجتماع السياسي. في حين أن الفرس والروم من حولهم قطعوا أشواطا في التمدن والتحضر والإجتماع حتى لو كان ذلك الإجتماع قد طبع بالقدسية

سيما عند الفرس لحكامهم.

جاءت رسالة الإسلام تدعو العرب أولا «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»[142] إلى مفارقة أنفة مستكبرة تهدم مجدهم وتئد ذكرهم. وإنها لمعجزة أن يقدر الإسلام على تأليف قلوب إستبدت بها الحميات الجاهلية وإفترستها الأنفات العربية الزائفة تأليفا يجعل منهم سادة فتحوا مشارق الأرض ومغاربها في عقود وجيزة. من تلك السرطانات الخبيثة التي جاء الإسلام يعالجها كما هو معروف سرطان السجود والركوع لوثن أو صنم بلا أدنى حصافة عقلية أو رشد ذهني. ومن ذلك على وجه الذكر وليس الإحصاء واقع المرأة التي كانت توأد وتورث متاعا رخيصا. وغير ذلك من المعالجات المعاصرة التي يحتاجها العربي فردا وأمة في تلك الأيام حاجة الظمآن إلى الماء الزلال.

رسالة الإسلام إذن رسالة تجديدية تحديثية معاصرة على معنى أنها تعالج المشكلات المعاصرة الواقعية التي يرزح تحتها الناس ولذلك لم يتردد عليه السلام أن نبه أمته إلى إن إنقطاع النبوة لا يعني التقليد حتى للنبوة نفسها إذ هو إتباع لا تقليد فيه بل يعني قطعا تقلد مناصب التجديد كما ورد في الحديث الصحيح آنف الذكر. بل إنه عليه السلام شجع المجددين والمجتهدين والثائرين بعقولهم وعلومهم ومعارفهم ونظراتهم على المدونات التي تأسر الناس في سجون الكسل العقلي فقال عليه السلام «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» [143]

---

[142] سورة الشعراء - الآية 214:

[143] أخرجه البخاري عن عمرو إبن العاص وبروايات مختلفة قليلا والمعنى واحد ثابت

الشريعة وجه من وجوه المعاصرة في الرسالة الخاتمة

هذا وجه آخر من وجوه المعاصرة في الرسالة الخاتمة أي الرسالة الإسلامية. وهي الشريعة العملية الواقعية والجامعة التي لم تكن مصاحبة لأي رسالة نبوية سالفة عدا ما أخبرنا عنه بندرة وقلة في رسالة موسى عليه السلام «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ»[144]. ولكن الطابع العام لكل النبوات السابقة والرسالات السالفة هو خلوها من الشريعة بهذا الجماع وهذا الشمول وهذا التفصيل. وما ذاك سوى لأن النبوة الخاتمة رسالة معاصرة تعالج المشكلات المعاصرة إذ إمتلأت الأرض بالناس وإزدحمت الحاجات وإكتظت الضرورات وتشابكت المصالح ونشأت الدول وتخصب الإجتماع السياسي للناس. فكان لا بد من شريعة جامعة شاملة وخاتمة نهائية فيها من مواطن السعة والمرونة ما يمكن لأهلها في كل زمان وفي كل مكان من إختراع تشريعات ميدانية عرفية عملية أسماها الفقهاء قديما منطقة فراغ أو عفو وفيها من الثبات

---

[144] سورة المائدة – الآية 45

والرسوخ ما يمكن أن يغذي تلك الإجتهادات بالأغذية الخلقية الحامية من ناحية والضامنة للسداد والرشاد من ناحية أخرى.

قبل تلك الرسالة الخاتمة لم تكن البشرية في حاجة إلى مثل ذلك لأسباب لا أرب لنا فيها الآن ولا يتسع لها هذا الكراس وهي تخرج عن رسالته أصلا. من وجوه المعاصرة في الشريعة الإسلامية أنها تلقى القبول في الدوائر غير الإسلامية عاما من بعد عام إذ يكتشف الناس من حين لآخر أن الشريعة الإسلامية شريعة صالحة معتدلة متوازنة تعالج قضايا المرأة والحرية والدولة والبيئة وغيرها كثير معالجات تناسب الحياة المعاصرة. آفة الربا مثلا من الأمثلة التي كادت تعصف بالولايات المتحدة الأمريكية في سنة 2008 [143].

كلمة خاتمة مهمة هنا هي : معاصرة الإسلام وشريعته هي في الآن نفسه تحد دائم لا ينقضي إذ أنه دين الله سبحانه الذي يتحدى الناس ويتحدى أي شريعة أخرى عقديا أو عمليا أن يأتوا بخير منه ولا أدل على ذلك من أن الناس اليوم وقد تبرجوا بالعلم وسكروا بالمعرفة ومكتشفاتها ومخترعاتها يباغتون بكثير من أعلامهم الذين يعتنقون الإسلام أو يعجبون به أو أن المعالجة الشرعية في الحقل الفلاني العام هو الأجدر بالحياة اليوم وذلك هو معنى أن الإسلام لن يزال يتحدى ـ وليس بنظمه الساحر فحسب كما ظن كثيرون ـ ولكن كذلك بمعالجاته العملية في الحقول العامة سياسيا وماليا وإجتماعيا. ذلك مظهر من مظاهر معاصرة الإسلام

---

[145] لمن يريد تحقيقا علميا مرقما في ذلك فليرجع إلى العدد السنوي لمجلة (جون أفريك) الفرنسية باللغة الفرنسية - ديسمبر 2008

للزمان والمكان والحاجات والضرورات والناس إذ هو ليس دينا أكل عليه الدين وشرب وتكلس وجمد كما هو حال دين آخر. وفي ذلك قال سبحانه يبين لنا معاصرة الإسلام وحمله التحدي المعاصر في كل زمن جديد ومكان جديد «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»[146].

[146] سورة فصلت – الآية 53

وجه المعاصرة في الحياة النبوية والأجيال الأولى

وجه المعاصرة هنا هو العامل التحريري للناس حتى يكونوا في وضع يسمح لهم حرية إرادة بإختيار ما يشاؤون : الإسلام أو غير الإسلام من غير إكراه. من ذلك أنه عليه السلام عاش في المدينة عشر سنوات فحسب خاض فيها زهاء ثلاثين معركة (غزوة بالتعبير غير الدقيق الذي لا أحبه) فرضت عليه فرضا وأرسل ضعفيها تقريبا بعثات إستعلامية إستخبارية إستطلاعية حمائية وإستباقية. لو فرزت ذلك لوجدت أن النشاط العسكري والأمني له عليه السلام بمعدل نشاط واحد في كل شهر ونصف عدا ما يصحب ذلك من إعدادات وتقويمات. هو نشاط عسكري وأمني مكثف دون ريب وسر ذلك هو أن الواجب المعاصر في زمانه هو حماية حقوق الإنسان داخليا وخارجيا قدر الإمكان بغرض تحرير الإنسان من الإكراه الذي يسلط عليه من قريش رمز العرب والإسرائيليين رمز الكتابيين والروم والفرس وغيرهم أن يختار الدين الذي يريد. ذلك أن تحرير الإنسان هو حجر الأساس في الرسالة الإسلامية فإذا تحرر الناس فقد إكتملت رسالة الإسلام. ولذلك أرسل الرسل مدججين بالكتب والأختام داعية إلى تحرير الناس والشعوب والقبائل والمجتمعات من بطش الحكام وعسف الرعاة حتى يختار الناس دينهم الذي يريدون دون أي إكراه ولا وصاية

حتى من الدين الحق نفسه ورسوله عليه السلام. ووجوه معاصرة أخرى كثيرة لا أرب لي هنا في إحصائها صحبت المرحلة النبوية منها على سبيل الذكر حرصه عليه السلام على تحرير الناس من الأمية إذ جعل فداء أسرى بدر تعليم الناس الكتابة والقراءة وأرسل زيدا لتعلم اللسان السرياني. كل ذلك يشي بأن رسالة الإسلام رسالة معاصرة تقدم ما يحتاجه الناس في عصرهم ومكانهم أوّلا

وجوه أخرى من المعاصرة في التاريخ الإسلامي

من ذلك أن الخلافة العباسية إشتهرت ببيت الحكمة والحرية الدينية والفكرية وقامت على الترجمات والتأليفات وإزدهرت التمذهبات والمدرسيات وبلغت حركة الإجتهاد في كل فن وعلم ومعرفة ومهارة أوجها وأثمر كل ذلك معالجة تحد بالغ الأهمية في تلك الأيام وهو مواجهة الغزو الفكري اليوناني وغزوات أخرى . ومن ذلك كذلك ما قام به الأتراك في أواخر العهد الإسلامي ذي السقف السياسي الواحد أي محاولة جمع الأمة تحت سقف سياسي واحد وعمر ذلك قرونا قصيرة ثم إندك لأسباب معروفة. وجه المعاصرة هنا هو أن الأمة بحاجة دوما إلى سقف سياسي واحد هو خير من عدم وجود سقف حام مهما كان ضعيفا إذ أن غياب ذلك السقف السياسي الواحد أحال الأمة كلها إلى الإحتلال العسكري أوّلا ثم إلى الغزو الفكري ثم إلى التفكك التام وإحتلالات أخرى معاصرة من مثل الإحتلال السيادي والإقتصادي.

وجوه المعاصرة التي أنشأها الإسلام وإستلهمتها العقول الإسلامية لم تظل محصورة في التجارب الحكمية السياسية عند الأمويين الذين فقهوا ذلك الوجه المعاصر للإسلام فطفقوا ينشرون رسالة التوحيد وإنتشل الله

بهم ملايين مملينة من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان وغيرهم. بل إن الحركات الإصلاحية نفسها إستلهم أهلها وجه المعاصرة في تلك الرسالة الإسلامية لنلفى أن رسالة الإخوان المسلمين مثلا قامت على محاولة لتجميع الأمة فكانت رسالة الجماعة جامعة شاملة تدعو إلى إصلاح الفرد والأسرة والدولة على حد تعبير مؤسسيها ووثائقها وهو وجه من وجوه المعاصرة.

كما برز ذلك قبل ذلك وبعده في مقاومة الإحتلال وتقديمه أولوية مطلقة عند بعض المصلحين من مثل عمر المختار في ليبيا وغيره وهي وجوه من المعاصرة التي يستلهمها العقل المسلم المهتدي بالوحي الكريم المعصوم وينزلها على حاجات عصره وضرورات مكانه ليكون مصلحا معاصرا لا يدعو الناس إلى ما لا حاجة لهم به. ومن تلك الوجوه كذلك أن بعض الحركات الإسلامية المعاصرة عالجت قضية الشمول في الدعوة الإسلامية معالجات إنطلقت من حاجات الناس وضرورات زمانهم وإكراهات مكانهم فميزت بين مناشطها الدعوية والسياسية وهو وجه من وجوه المعاصرة .

ومن وجوه المعاصرة كذلك تقديم الهم الفلسطيني لتحرير الأرض السليبة سيما أنها ليست أي أرض بل هي الأرض التي يذكرها الوحي دوما أنها مباركة لتظل تلك القضية قضية مركزية في الوجدان المسلم المعاصر. ومن تلك الوجوه كذلك العناية بالمرأة بعدما إعتبرها جزء غير يسير من التراث الإسلامي غير ذات موضوع والإهتمام بالغرب إبتغاء تفكيكه وفهمه والتأثير فيه والإستيراد منه كذلك . كل تلك الوجوه التي ذكرت ـ وهي لا تصل عشر معشار الحقيقة ـ هي وجوه معاصرة توحي بأن رسالة الإسلام رسالة معاصرة بمعنى أنها تهتم بعصر الناس وليس بعصر غيرهم

وبمكان الناس وليس بمكان غيرهم وبحاجات الناس وضروراتهم وليس بحاجات غيرهم ولا بضرورات غيرهم وبمصالح الناس وليس بمصالح غيرهم. وعلى ذلك نشأت المحاولات الإسلامية تترى سواء إمارات رسمية أو إصلاحات أهلية ومعالجات مدنية

نحو تبين معاصر لأرشد
أركان الأمة الإسلامية مستنبطة من القرآن الكريم

من يستقرئ القرآن الكريم إستقراء موضوعيا جامعا لا مجتزأ مبتسرا مهشما يستنبط بيسر أنه رسم لنا أركان الأمة الإسلامية بحسبانها أمة القلم والخير والقوة وأن حياة الأمة ـ بل سؤددها لأن الأمة لا تموت ـ مرتهنة بتلك الأركان. أركان الأمة في الكتاب العزيز هي:

1) العلم

وقد رمّز له بالقلم ونزلت سورة كاملة هي أول سورة حملت إسم القلم. بل ذكر القلم والعلم في أول الآيات نزولا أي في سورة العلق «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» [147] ومعنى ذلك هو أن الأمة لا تقوم إلا بالعلم الذي هو معرفة وبحث وإجتهاد وتجديد وإستنباط وإختراع وإكتشاف وغير ذلك من القيم التي لا أب لها عدا العلم. وأظن أن نزول القلم سواء كلمة أو سورة في مجتمع عربي لا سلاح له عدا سلاح العصا والسيف الذي عادة ما يستخدم ظلما وقهرا لا عدلا إنما هو رسالة صحيحة

---

[147] الهامش العاشر : سورة العلق آية 4 وآية 5

جلية من الله إلى الأمة الإسلامية العظمى وهي بصدد النشوء والتكون عمادها ألاّ مستقبل لها إلا بالعلم. ولذلك لم يتردد عليه السلام في مقايضة أسرى بدر بتعليم كل واحد منهم عشرة من أصحابه القراءة والكتابة. ولما فقه المسلمون الأوائل ذلك أينعت الأمة بآلاف العلماء والعارفين والباحثين والدارسين في كل المجالات والميادين بل ما من عالم في الدين إلا وجمع إليه غصنا واحدا على الأقل من غصون المعرفة الكونية

2/ الصف

الذي نزلت به سورة مدنية كاملة سماها هو نفسه سبحانه سورة الصف وقال فيها بالحرف الواحد بل في مفتتحها «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ» [148] ومعنى ذلك هو أنه لا قيام لأمة الإسلام إلا بإجتماع كلمتها ورص صفها الواحد. ولا يكون ذلك إقتضاء عقليا إلا بنشوء سقف واحد للأمة عليه هيئة واحدة تسمى دولة أو غير ذلك فلا مشاحة في الأسماء. ولذلك لم يتردد عليه السلام في النذير بأن سقف الأمة الواحد إذا إنتقض فقد بدأت عرى الإسلام نفسه بالإنقراض وذلك في حديثه الذي مر معنا هنا في هذا الكراس «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة»[149] وهو نذير قبل أن يكون نبوءة على ضد ما يريد تفهيمنا الناس.

---

[148] سورة الصف - الآية 4

[149] رواه أحمد الحاكم وصححه والألباني في صحيح الترغيب

لا أظن إلا أنه قال هذا الذي أوحي إليه به عليه السلام وهو يتمزق ألما ويطعن أسى وإلاّ فكيف يحدث نبي قومه بمثل هذا ؟ هي نذارة وقد تحققت لما إنقلب الأمويون على الخلافة الراشدة وحولوها قيصرية كسروية وراثية لا طعم فيها للشورى التي فرضها سبحانه في سورة كاملة ولا للتراضي الذي بنيت عليه البيعة في الخلافة الراشدة. لا إخالني بحاجة إلى الإطناب هنا بسبب أن إنتقاض عروة الحكم الإسلامي مبكرا جدا نحن اليوم من يتذوق ويلاته ويتلظى بسعاره إذ غدونا لقمة سائغة شهية في بطون أعداء الأمة

3) الشورى

الذي قال فيها سبحانه «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » [150] وأنزل في ذلك سورة مكية كاملة سماها هو سورة الشورى. ومعنى ذلك هو أنه لا قوامة لأمة الإسلام إلا بأن تدار أمورها العامة بالتشاور بين أبنائها وبناتها وبالتراضي. ناهيك أن الشورى هنا هي خلق وعبادة توسطت الحدقة بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة إذ قال «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» [150] وبذلك إحتل خلق الشورى مكانه من حدقة العين كما يقول العرب وبؤبؤها. وأكرم بها من منزلة لو كنا نفقه. قيمة الشورى ـ وهي الركن الثالث من أركان الأمة ـ تنبع من قيمة الإعتراف بقانون الإختلاف وسنة التعدد التي بنى عليها سبحانه كونه وخلقه وإجتماع عباده. ذلك أن الصف الواحد المرصوص لا يكون سميكا مؤتمنا إلا من بعد أن يقع

---

[150] سورة الشورى - الآية 38

التشاور بين كل أبنائه وبناته على قضايا كبرى وأمور عظمى لا يحسم فيها فرد واحد كائنا من كان. ناهيك أن محمدا نفسه عليه السلام وهو الأرجح عقلا إلتزم بنتيجة الشورى في عدوان أحد رغم أنه ليس من الذين إنتخبوا إمكانية الخروج من المدينة. بل كان يحرص على مشاورة أصحابه في الملمات وتواتر ذلك في كل الحلقات التي تشكلت منها سيرته الكريمة عليه السلام.

ألم تتوفر على المناعة الدول التي أخذت اليوم بالشورى والتراضي في أروبا والغرب بصفة عامة وهي مزيج من الأديان والألسنة والأعراق والأصول والألوان لا مبتدأ له ولا منتهى؟ لا تلتفت كثيرا إلى الذين تأسرهم الأسماء فأولئك أطفال صغار إذ منهم من يكفر بكلمة الديمقراطية كفرا رهيبا كأنها (لات) أو (عزى) إذ العبرة هنا في الحقل العام بالمسميات والمقاصد وليس بالأسماء.

ألم تستبح أمتنا شرقا وغربا ويسلب عرضها وتنتهك سيادتها وينهب مالها إلا من بعد أن أدبرت عن خلق الشورى وتحولت السلطة فينا إلى وراثة أضحت في أذهان أكثر المسلمين اليوم سنة مسنونة منه هو نفسه عليه السلام إذ يستند الملوك العرب اليوم إلى جدهم محمد عليه السلام أو إلى جمهوريات فاسدة مستبدة ظاهرها الحرية والديمقراطية والتداول على السلطة وباطنها حكم العسكر أو الإنتخابات المزيفة. وكل ذلك كفر بالشورى التي هي سورة من سور الكتاب العزيز وتحمل قيمة السؤدد في الأرض

4) القوة

الذي عبر عنها سبحانه بالحديد في سورة الحديد وغيرها إذ قال سبحانه هناك «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» [151] ومعنى ذلك هو أنه لا مستقبل لأمة الإسلام إلا بصناعة الحديد صناعات مدنية توفر رغد العيش وقد سبقنا إلى ذلك الغربيون ونحن نستورد منهم ما نحن مأمورون بصناعته وصناعات عسكرية نمنع بها أنفسنا وأمتنا وأرضنا وثرواتنا وسيادتنا كما نمنع بها المستضعفين والمقهورين إن إستطعنا إلى ذلك سبيلا من عدوان الظالمين في الارض.

الثمرة المرة التي ورثناها وتجرعناها نتيجة إدبارنا عن صناعة الحديد ببعديه المدني والعسكري هي أننا أمة يفترسها الحديد الذي يصنعه الآخرون وأعداؤها إفتراسا في سوريا وغير سوريا. وذلك هو منهج الله العادل سبحانه فإما لزوم لمنهجه وسعادة وإما فإن الذي تنكبناه ـ الحديد مثلا ـ يصنعه أعداؤنا ويفترسوننا به إفتراس الذئب النهم الجائع المفسد للنعجة القاصية

5) الإصلاح

الذي لم ترد به سورة تحمل إسمه ولكنه ورد مبثوثا في مواضع كثيرة لو جمعت أدلتها الجزئية والكلية لتحصلت على دليل عام عنوانه أن الإصلاح ركن من أركان أمة الإسلام وورد ذلك في آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي عدته بعض الفرق الإسلامية (المعتزلة) ركنا من أركان الإسلام

---

[151] سورة الحديد - الآية 25

وهو إجتهاد قويم في الحقيقة لقوة ما تجد في القرآن والسنة من تأكيدات تترى في هذا المطلب الكفيل بحفظ الأمة كما ترجم ذلك بكلمات أخرى في الكتاب والسنة منها : الدعوة إلى الخير والنصيحة والتواصي بالحق وبالصبر وبالمرحمة وقوله سبحانه «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» [152] وغير ذلك مما ورد في شأن الإصلاح. ناهيك أن الله أمرنا بقتال فئة من الأمة الإسلامية لا تخضع للصلح في سورة الحجرات «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [153] ومعنى ذلك هو أن الإصلاح بين أبناء الأمة وبناتها وبين طوائفها وقبائلها وفرقها وبين كل مختلفين فيها يخشى منهم شق الصف الواحد المرصوص أو إختراق السقف السياسي الواحد فريضة مفروضة وسنة متبعة وحكمة بالغة بل ركن من أركان هذه الأمة. وقد ترجمت الأمم الغربية تلك القيمة بإنشاء محاكم دستورية تكون سلطتها القضائية فوق سلطان الدولة نفسها سيما عند يشكو الدولة مواطن أو مؤسسة

تلك هي أركان الأمة الخمسة. أي العلم المرموز له بالقلم. والصف الذي فيه سورة تحمل إسمه. والشورى بمثل ذلك. والحديد بمثل ذلك. والإصلاح الذي هو بمثابة ملح الطعام. تلك أركان خمسة للأمة لا قوام لها بين الأمم إلا بها فهي قوية مهابة بقدر قوة تلك الأركان فيها وهي ضعيفة مستضعفة منهوبة بقدر ضعف تلك الأركان فيها. قد يسأل سائل أين ركن الإيمان أو ما يسمى العقيدة؟ سؤال وجيه وجوابه هو أن ركن الإيمان كنى عليه بالعلم ذلك أن الإيمان هو ثمرة علم ومعرفة وليس ثمرة رؤيا منامية أو صدفة عجيبة إذ إرتبط الإيمان بالعلم في القرآن مرات ومرات فلا تعجب

---

[152] سورة النساء - الآية 128

[153] سورة الحجرات - الآية 10

التدين شجرة خماسية التركيب

أميل إلى التمثيل والتشبيه إذ بالمثال يتضح الحال كما قالت العرب. ومن يقرأ القرآن الكريم سيما في أمثاله الكثيرة يتعلم أن أفضل طريق للتعليم هو طريق التمثيل والتشبيه والقصص. من ذلك أن التدين شجرة خماسية التركيب . يتركب التدين من جذر أصلي هو الإيمان أو العقيدة بالمصطلح الحديث. ومن جذع رباعي التركيب هو بدوره أي محطات العبادة الأربعة صلاة وصوما وزكاة وحجا. ومن غصن نطلق عليه إسم الغصن الرحمي فهو يتركب من الرحم النسبي الحقيقي والرحم الصهري والرحم الجواري وكل أولئك مذكورون في آية النساء المعروفة بآية الحقوق الثمانية وقد مرت بنا هذه الآية في هذه الكراس وهم مشمولون جميعا بفضيلة الإحسان وقيمته جنبا إلى جنب مع الوالدين أنفسهم. ومن منطقة أخرى رابعة نطلق عليها إسم المحتاجين سواء كانوا أرامل أو أيتاما أو مقهورين سياسيين أو غير ذلك ممن يحتاجون للتحرير من ربقة الجوع الكافر أو من سجن الجهل العاهر أو من غيرهما من السجون التي تضم أضلع الإنسان فتحيله شيئا لا مذكورا. ومنطقة خامسة وهي منطقة الناس أو العالمين أجمعين والمقصود هنا السير فيهم بالعدل والتعارف والإحسان والفضل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والنصيحة

والحد الأدنى لذلك كله هو كف الأذى. تلك هي مركبات التدين الإسلامي الأرشد الخمسة : إيمان على طريق إيمان إبراهيم ليس فيه ظلم يشوبه أي ظلم الشرك و عبادة أركانها الأربعة المعروفة كفيلة بتزكية النفس وتطهير الروح و الإحسان إلى الدائرة الرحمية القريبة بدء من الوالدين والأسرة الضيقة ثم الموسعة رحما مترامي الأطراف وصهرا وجيرة كذلك إذ لكل هؤلاء حقوق زائدة عن حقوق الإنسان الآخر و السير في الدئرة الإنسانية الواسعة بخلق الخير أو كف الأذى حدا أدنى ومزاولة الإصلاح بطريقه المعروف. وربما تكون آية من آخر آيات سورة الحج المكية معبرة عن تلك المركبات الخمس للتدين الأرشد «إركعوا وإسجدوا» عبادة و«أعبدوا ربكم» عقيدة وإيمانا و«أفعلوا الخير» سيرا في الناس بالحسنى و«جاهدوا في الله حق جهاده» سيرا في الدنيا كلها والحياة بالإصلاح الخالص لله سبحانه وحده وفي مكانه وزمانه وبحجمه الذي يقدره أهل الرأي والخبرة أن يكون الظاهر جهادا والباطن إفسادا وعدوانا. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»[154] . ولم تذكر المنطقة المتعلقة بالدائرة الرحمية هنا ولكنها ذكرت مرات في سور أخرى كثيرة منها آخر الأنعام وأول الأسراء وغيرهما

[154] سورة الحج - الآية 77 و78

كيف يتعصرن التدين وهو ثابت؟

أختم هذا المحور بطرح هذا السؤال الذي قد يشغب على بعض المتدينين. لقد مر بنا أن الدين مساحتان : مساحة ثابتة موقوفة راسخة لا تتبدل ومساحة حقها الإجتهاد والتجديد. التدين يتبع الدين فهو فقرات لا تتغير ولا تتبدل وهي فقرات الإيمان بأركانه الستة المعروفة وفقرات العبادة بأركانها الأربعة المعلومة وكثير من فقرة الحقل الأسري العائلي فيما هو معلوم من الدين بالضرورة بالتعبير القديم وما ثبتت حرمته ثبوتا قطعيا والتدين فقرات أخرى تتبدل وتتغير لتناسب العصر ومن مثل ذلك أن الجهاد في سبيل الله كان في القديم على ظهور الخيل والدواب ولكنه اليوم على ظهور الطائرات والراجمات والسفن الحربية والغواصات وغيرها بل هو اليوم بالقلم واللسان والفنون والتنظيمات وغيرها. ليس أربي هنا ضرب الأمثال لأنها معلومة ولكن أربي هنا هو التذكير بأن تعصير التدين أو عصرنته (نسبة إلى العصر) لا يعني تغيير الثابت من الدين أو الراسخ من التدين ولكنه يعني أساسا إختيار الوسائل المناسبة لتحقيق مقاصد التدين وأغراضه والتصدي للمشكلات الحارقة والصعوبات الحالقة من مثل تشتت الأمة وتمزقها ومن مثل سيادة الجهل في أمة إسلامية بنسبة تصل ثلاثة أرباعها وهي أمة القلم ومن مثل سيادة العلمانية والليبرالية

وتصدرهما مجالس الحكم والتوجيه وهما يضادان العقيدة الإسلامية وشريعته ومن مثل تهويننا من أمر المرأة وهي شقيقة الرجل بنص حديثه الصحيح عليه السلام وغير ذلك مما هو شائع فينا وقد لا نلقي له بالا ظنا منا أنه لا يتصل بالدين أو التدين صلة مباشرة.

المقصود إذن من تعصير التدين أو عصرنته أو جعله منسجما مع العصر هو الحفاظ على أصوله وجذوره وجذوعه وما هو ثابت فيه وراسخ تشبثا لا يتزحزح وفي الآن نفسه العلم بالتحديات المعاصرة وترتيب أولوياتها والتصدي لها كما فعل الصحابة ومن جاء بعدهم. التخلي اليوم مثلا عن المقاومة ولو بكلمة أو موقف أو صورة سواء مقاومة لإستبداد سياسي محلي أو مقاومة لإحتلال كما هو الحال في فلسطين وقدسها ليس من التدين في شيء بل هو عصيان وفرار من تكاليف التدين ولا يغني عن صاحبه يوم القيامة أنه سجد مليون سجدة. وليس تهوينا ـ حاشا لله ـ من السجود والركوع والقراءة ولكن دعوة إلى الوسطية في العبادة والتوازن فيها والإعتدال في العمل. ذلك هو معنى التدين المعاصر

أرشد تدين معاصر هذه فقراته

ليس الحديث هنا عن التدين الفردي وواجباته الفردية فهو معلوم ضرورة بل ومحل رعاية من أغلب المسلمين حتى في عصور التخلف والتردي. إنما الحديث عن التدين المعاصر الأرشد في معاقده التكافلية ومحاضنه التضامنية والذي سمي قديما واجبات كفائية إذا أوتيت الأمة من ثغراتها فإن الإثم يقع على المسلمين جميعا. التدين المعاصر لنا اليوم يعني إيلاء هذه القضايا أولوية كبرى

أولا ؛ مقاومة الطغيان السياسي تكافلا منا جميعا إذ ثبت حتى في التاريخ القديم فضلا عن الجديد أن الفساد السياسي هو أبو الفساد المالي والإجتماعي. والدولة اليوم تحتكر كل شيء فلا صلاح للناس والمجتمع إلا بصلاحها ولا فساد لهما إلا بفسادها وهو الأثر الذي قال صاحبه : كما تكونوا يولى عليكم. وقيل كذلك : الناس على دين ملوكهم. هو صحيح مكلف في النفوس ولكن التهاون فيه أشد كلفة

ثانيا ؛ مقاومة الجهل والأمية وتدني الوعي بالدين والدنيا معا. ولا معنى لأننا أمة القلم بتعبير القرآن الكريم سوى بأن نكون للناس من حولنا رعاة وهداة ومعلمين. ولا أظن أن العدو الذي يقصفنا بالنفاثات

والبوارج وأجهزة الإستخبارات الذكية تقلد ذلك سوى بالصبر على لأواء المعارف عقودا مثل ما كان أسلافنا يوم كنا خير أمة

ثالثا: رص الصف الواحد للأمة مهما كانت الخروقات عنيفة والفتوقات شنيعة ولا رص لصفنا الواحد إلا بالإعتراف بالقانون الإلهي أي ناموس التعدد وسنة التنوع وليس أخصب للعدو فينا من صف ممزق يغري الأقليات العرقية واللسانية والمذهبية وغيرها بتفريق الصف أنها موؤودة وهو ينتصر لها

رابعا: إمتلاك أدوات القوة ومسالك الحديد رمز كل قوة مدنية وعسكرية ولو جمعت الأمة أدمغتها المهاجرة فأغرتهم بما هم له أهل من مال ومناخ وحظوة لأقفرت الأرض من العلم والعلماء

خامسا: مداومة الإصلاح وجعله مسارا إستراتيجيا لا يتوقف وحقولنا التي تحتاج إليوم إصلاحا لا تحصى ولا تعد من إصلاح بين الدولة والمجتمع وإصلاح بين التيارات والأحزاب والجماعات وإصلاح بين المذاهب والمدارس وإصلاح بين الجهات والفئات وإصلاحات قيمية فكرية ثقافية أخرى كثيرة

ألا ترى أن فقرات التدين الجماعي الأرشد ـ أي التدين المعاصر ـ هي ذاتها الفقرات التي أسميتها أركان القرآن الكريم وهي أركان الأمة؟ لم يبهرني شيء ويشدني أكثر من أني ألفيت أن تحدياتنا الجماعية العظمى التي تشكل ضعفنا وتأخرنا وتغري بنا العدو إنما هي أركان القرآن الكريم التي أشار علينا بها لبناء الأمة. لم أكن أصدق أن القرآن نزل لنا نحن اليوم ونزل ليعالج مشكلاتنا إلا عندما تدبرت هذا. لا حاجة لي بمن يعلمني أن

القرآن يتلى اليوم على الوجه الصحيح عندما يتلى وكأنه نزل علينا نحن الآن ولم ينزل بالأمس. لا حاجة لي بذلك ورب العزة لأني ألفيت فيه ما يصلح أمتي بالكامل. قرأت هذا بنفسي فأنا أرويه سماعا. لو ندرك معنى هذا الكتاب الذي يحفظ ذكرنا ويكفل سؤدننا ؟ هل ندرك؟ سندرك ذلك يوما إن شاء الله

حقيقة الأزمة المفتعلة بين الإسلام والمدنية

يمكن لهذه الفقرة أن تحتلّ محورا خاصا تستقله وهي بذلك جديرة عدا أن حرصي على تجنب الإطناب والإسهاب في هذا الكراس منعني ذلك. هذه أزمة مفتعلة في العقود الأخيرة بمناسبة الإرهاب الفكري الذي يقترفه الغرب السياسي والثقافي ضد الأمة الإسلامية التي فرّطت في سلاحيها اللذين يحميانها : الإجتهاد الفكري وهو فريضة دينية محكمة كما مرّ بنا آنفا أن تأسن الحياة. والجهاد العملي بمعنييه المدني والعسكري أن تتعرض الأمة لمخالب الفقر والمديونية والإحتلالات المعاصرة الجديدة بالنتيجة.

بعض الناس يعون تلك العلاقة الحميمية بين الإسلام وبين المدنية وبعضهم يحرّف الإسلام أو المدنية ليظلا في حالة خصومة. بإختصار شديد إبتغاء تسطير العناوين الكبرى لهذه العلاقة المتوترة بين الإسلام والمدنية أقول أن الإسلام دين المدنية عندما تعني المدنية حرية الإنسان وحرية إرادته وإستقلاله عمّن يريد إحتلال عقله أو إستئجاره سواء من سلف سالف أو من خلف خالف.

الإسلام دين المدنية القحة التي تفوق التصورات حقا وفعلا وصدقا ومن ذلك أن الله نفسه سبحانه وهو يدعو الإنسان إلى عبادته ـ والإنسان يعلم فطرة أن الله هو ربه وخالقه ورازقه ومالكه ـ حذره من الإكراه

أن يستحوذ عليه بأي صورة من صوره الخبيثة سواء كان تقليدا لآباء سالفين أو لمجتمع قهري أو لسلطان غشوم أو لعادات وتقاليد أو لغفلة أو لنقصان نضوج وإنعدام رشد. ومن ذلك أنه حرص بشريعته على تحرير العبيد أوّلا وقبل كل شيء فإذا تحرر العبد عرضت عليه الدعوة وهو الحال نفسه مع كل إنسان من آخر بعثة ـ بل من أوّل بعثة ـ إلى يوم القيامة فلا يكره الله نفسه ـ وهو الحق سبحانه الذي لا ينكره الإنسان نفسه ـ عبده على عبادته حتى إنه عاتب نبيه عليه السلام وهو الذي لم يفكر يوما في إكراه أحد على عبادة الله قائلا «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [155] وبذلك غدا الإكراه بأي صورة من صوره في الإسلام وفي أي حقل من حقول الحياة من أكبر الكبائر وأشنع الشنائع فلا مكان له عدا النفي والوضع والطرد.

لا أظن أن هناك برهانا أقوى من هذا على أن الإسلام مدني بالمعني التحرري التحريري الإعتاقي التكريمي للإنسان فلا يكره ذلك الإنسان حتى من لدن ربه سبحانه على عبادة الله سبحانه وهو الأمر المعلوم من العقل بالضرورة حتى لو حجبه الكبر ومازال في الدنيا. عندما يخبرنا الله سبحانه نفسه في كتابه بكلمات صحيحات صريحات أنه لن يعذب عبدا يوم القيامة بسبب كفره إلاّ إذا وصلته دعوته صحيحة صريحة كافية شاملة وكان هو في موضع فهم لها ومؤهل لإستيعابها بلا أي إكراه بأي صورة ولكنه ركلها كبرا وجحودا.. عندما يفعل الله ذلك فلا يعني ذلك سوى أن الإسلام دين المدنية التي تكرم الإنسان فلا تكرهه على شيء أبدا

---

[155] الهامش الثامن عشر : سورة يونس آية 99

حتى لو كان ذلك الإكراه يحمل للإنسان نفسه الخير والسعادة. وهل هناك أسعد للإنسان من أن يهدى إلى ربه فيعبده ليؤمّن نفسه من الشقاء؟ هل هناك دين مثل ذلك وهل هناك فلسفة أو نظرية أو نظام حكم مثل ذلك ؟ اللهم لا. ومن مظاهر المدنية بمعناها التحريري الصحيح الأوّل في الشريعة الإسلامية أن الله سبحانه بنى شريعة حرصت الحرص كله على أن يكون الرسول ـ أي رسول ـ متجنبا لمواقع السيطرة والوكالة والحفظ والوساطة بين الله وبين عباده. ولذلك جاءت التعليمات تترى في القرآن الكريم مرات ومرات تقول لمحمد عليه السلام«وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ»[156] أو «وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» [157] أو «لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ» [158] وبذلك نفت الشريعة بكلمات صحيحات صريحات قاطعات مواقع الوكالة من النبي ـ كل نبي ـ على الإنسان ومواقع الحفظ والسيطرة وحصرت دور النبي ـ كل نبي ـ في مواقع البلاغ وكان البلاغ صحيحا صريحا مرات ومرات في شأن محمد عليه السلام «إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ» [159]. من كل ذلك نستنبط أن الشريعة مدنية بمعنى أنها لا تسلط الناس حتى لو كان رسلا من أولي العزم أو كلماء أو أخلاء على الناس المدعوين وتقصر دورهم على وظيفة البلاغ وهو الأمر الذي تورط فيه المسيحيون كثيرا واليهود بدرجة أقل وهي ديانات سماوية. تلك هي الشريعة التي تحرص الحرص كله على نفي أي

---

[156] سورة الأنعام - الآية 107

[157] الآية نفسها

[158] سورة الغاشية - الآية 22

[159] سورة الشورى - الآية 48

إكراه حتى من الله نفسه ـ وهو من هو في نفس كل نفس ـ ومن أي رسول ـ كائنا ما كانت قربته التعبدية من الله سبحانه ـ وبذلك يظل الإنسان في كل زمان وفي كل مكان عبدا لله وحده إن شاء آمن وإن شاء كفر فلا سلطان عليه من نبي أو رجل دين أو دين نفسه إذ مهمة أولئك هي التبليغ وليس عدا التبليغ بل نفى عنهم حتى إمكانية الهداية لمن شاؤوا «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [160] هل هناك دليل أقوى من هذا وأطعن أن الشريعة الإسلامية شريعة مدنية على معنى أن الإكراه فيها موضوع منكور ممقوت فلا يكره الله نفسه الإنسان عليه ولا يهب من ذلك حبة خردل لأي نبي من أنبيائه فيكرهون الناس أو يكونون عليهم وكلاء وحفاظا ووسطاء بينهم وبين ربهم؟ اللهم لا.

القيمة العظمى من ذلك هي أن الإسلام دين مدني على معنى نفي الإكراه ووضع الوكالة وترسيخ الحرية وتثبيت الإرادة لكل إنسان فمن شاء آمن ومن شاء كفر. بل إن مما يغذي تلك القيمة هي أن الكافر لا يعاقب بسبب كفره ولا وجود لحد إسمه حد الردة في الإسلام عدا حد الحرابة الذي فصل في سورة المائدة فلا يعاقب إنسان بسبب كفره ولا حتى بسبب ردته ما خرج من الإسلام خروجا مسالما مثل خروج أي زبون دخل مغازة فلم يجد ما يغريه فيها فخرج فهل يطالبه صاحب المغازة بشيء؟ أبدا.

ذلك هو الإسلام وتلك هي شريعة : لا إكراه فيها حتى من الله نفسه ولا وساطة فيها ولا وكالة من الأنبياء على العباد الذين يدعونهم بالحسنى والرفق والحكمة والحجة إلى الله ربهم سبحانه ولا عقوبة فيها لا على

---

[160] الهامش الثالث والعشرون : سورة القصص آية 56

كافر أبى الإسلام بسبب كفره بل يظل مشمولا بالتكريم الإلهي السابق ولا حدّ فيها على مرتد أغراه الإسلام فولجه ثم تبين له أن يخرج منه فخرج مسالما كما دخل لا يتعدى على مقدسات الناس. ومن حقه نقد غير ذلك مما لم يعجبه في الإسلام نفسه نقدا فكريا كأن يقول مثلا أن الإسلام لم يوف المرأة حقها أو أنه لا يناسب العصر أو أي شيء من ذلك. لا أجد شيئا أكثر من ذلك يغريني بمدنية الإسلام ومن وجد غير ذلك فلا يضنّ عليّ به . المدنية تعني الحرية والكرامة والإرادة وهي ضد الإكراه والوكالة والوساطة والوصاية. فإذا كان ذلك كذلك فإن الإسلام بشريعته قد تربع على عرش المدنية. وإذا كان الناس يريدون تحريف قيمة المدنية بحثا عن شيء يحاربون به الإسلام فهذا شأنهم وحدهم إذ أن بعضهم أسير القصة المعروفة أن رجلا أخبر صاحبه أنه كان في المطعم الفلاني وأنه وضع فأرا في الأكل الذي قدم له من دون أن يتفطن له النادل وبذلك تحايل عليه وظفر بأكلات أكثر لذة وبالمجّان جزاء له على كتمان الفضيحة التي كانت ستلحق بالمطعم لو أنه أفشى الأمر على الملإ. فما كان من صاحبه ذاك إلاّ أن إصطحب معه فأرا ميتا لعله يصيب غفلة من النادل فيضعه في الطعام المقدم له فلما أعيته الحيلة قالها بكل صراحة ووقاحة : أين أضع فأري إذن؟ وعندها إفتضح أمره وأخبر عن صاحبه.

بعض الناس اليوم يمتهنون هذه الحرفة الخبيثة (أين أضع فأري) لأجل إلحاق قذارة بالإسلام فإن أعياهم البحث كان عليهم بحسب ظنهم أن يجدوا موضعا يكون في الإسلام هو موضع ذلك الفأر وبذلك يظفرون بما يريدون. ليس الإسلام بحاجة إلى لقب المدنية ولا حتى الحرية والديمقراطية والصفة الحقوقية والإنسانية والمعاصرة وغير ذلك مما يتشدق به الناس

من الذين يعلمون ومن الذين لا يعلمون ولكن عندما يرمى الإسلام بالخلو من ذلك في زمن عبد الناس فيه تلك القيم فإنه على الدعاة والعلماء بيانا شافيا كافيا ضافيا مؤصلا في النص وفي الواقع معا أن الإسلام بشريعته هو دين المدنية ودين الحرية ودين ينسجم مع الديمقراطية ودين الإنسانية ودين الكرامة ودين الحقوق ودين المعاصرة وغير ذلك وهو من لازمات المعركة الفكرية بين الدين وما يعرضه التجار مع فجر كل يوم جديد من بضاعة جديدة والناس كلهم في الأرض كلها اليوم بسبب ثورة التواصل الهادرة زبائن يغريهم هذا ويفرون من ذاك. أفلا نكون تجارا لدين طبيعته العظمى أنه يتحدى الناس في كل زمان وفي كل مكان بما بهروا به وما أغواهم وسحرهم سحرا؟

وعندما يكون الإنسان حرا أمام خالقه إن شاء آمن به وإن شاء كفر به. وعندما يكون حرا أمام نبيه الذي لا يزيد على إبلاغه رسالة ربه إليه فلا يكون عليه وكيلا أو وصيّا أو مسيطرا أو مكرها له على إيمان ولا حفيظا علـــيه. وعندما يكون الإنسان حرا أمام الإنسان مجتمعا ودولة فلا يكره على إيمان ولا يكره على كفر ولا يحاسب على إيمان ولا يحاسب على كفر ولا يؤاخذ على ذلك ما كان مسالما يحترم الناس وعقائدهم كما ينال منهم من حرمة لما إختار لنفسه من إيمان أو كفر ولا يمنع من نقد الدين نفسه من دون المساس بالمقدسات العظمى التي تواضعت عليها البشرية جمعاء قاطبة منذ القدم أي الإلهية والنبوة والكتب المقدسة ..

عندما يهب الإسلام ذلك كله للإنسان لا أظن أن الذي يتهم الإسلام من بعد ذلك بأنه دين لا مدني إلاّ أنه قميء سمج لا عبرة لا به ولا بحديثه أصلا. عندما يعلن الإسلام أن الله لن يؤاخذ إنسانا يوم القيامة أنه كفر من

غير كبر وإنتفاخ إذ لم تصله دعوة صحيحة صريحة أو كان يوم وصلته في حال لا تؤهله للتقرير هل يؤمن أو يكفر لأنه كان عبدا بأي صورة من صور الإكراه .. عندها لا أظن أن الذي يرمي الإسلام بإنعدام الرحيق المدني سوي المزاج. فكم من قافلة تحمل الخير للناس مما يأكلون ويشربون والكلاب تشبعها نباحا . هل ترى أن الكلاب تعي ما تحمل القافلة؟ ذلك هو حال كثير من الذين يعبدون ذواتهم أو أنساقا فكرية هم لها عاكفون وشتان بين من يتحرر فكريا ومن همه ومبلغ علمه حرية التعبير. الإسلام تجاوز منطقة حرية التعبير ليهب الإنسان حرية التفكير أصلا.

شريعة الإسلام التي تدعو إلى أن ينتظم الناس تحت سقف سياسي واحد لا تختار له إسما لأنها لا تحفل بالإسماء ولكن تحرص على أن يشبع ذلك السقف بقيم الحق والخير والعدل والتعارف والكرامة والعلم والحرية والمساواة .. تلك شريعة لا يمكن أن نسميها شريعة لا مدنية إذ هي لا تجبر الناس على الإنتظام تحت سقف دولة تيوقراطية دينية مزقت أروبا حتى ثار ضدها العلماء والخبراء ولا تحت سقف نظام عسكري تكون العلاقة فيه بين جندي مطيع ورئيس أمير. شريعة الإسلام مبناها التبايع التعاقدي الحر بين الدولة والناس على أساس التراضي والتشاور ولذلك لم يؤذ بعض الصحابة الذين لم يبايعوا أول دولة برئاسة أبي بكر وظلت حالات عدم أداء البيعة موجودة في إثر نشوء كل دولة جديدة فما دامت هي حالات قليلة فإن المشهد السياسي يمضي بالأغلبية التي هي مبدأ إسلامي أصيل. أنّى للموتورين من المسلمين ومن غير المسلمين أن يتهموا الإسلام بعدم المدنية بمعناها التحرري الأصلي وآخر نبي عليه السلام خضع لمبدإ الأغلبية ولنتيجة التشاور والتراضي في إثر الخلاف حول الخروج إلى أحد في

عدوان أحد أو الدفاع عن المدينة من داخل المدينة؟ إذا كان النبي نفسه يقرّ مبدأ الأغلبية وقيمة التراضي والتشاور بين الناس على أساس التساوي بين حرماتهم وأصواتهم فلا يتقدم قديم جديدا بإسم العراقة ولا أبيض أسود ولا ذكر أنثى ثم يلتزم وهو النبي الذي يوحى إليه بالنتيجة وهي على غير هواه هو فأنى لنا أن نتردد في القول أن الإسلام دين المدنية وقيم الحرية والإرادة البشرية وهو يقرّ مبدأ الأغلبية وأن الإنسان مدين لربه وحده إن شاء ذلك أصلا وأنه لا وجود لأي سلطة تلزمه بشيء أو تكرهه على شيء إلا فيما يتراضى هو نفسه فيه تعاقدا حرا بينه وبين الذين إرتضى أن ينتظم معهم تحت سقف دولة؟

بالله عليكم وبالله أسألكم إن ظفرتم بأي نظام فكري أو ديني هو أكثر مدنية من هذا الدين سواء علاقة مع الله أو مع النفس أو مع الإنسان أو مع الدولة فلا تضنوا عليّ حتى أخلع عني ما أحمله وزرا منذ ستة عقود

المحور السادس الأخير
دليل جامع لتدين راشد

مقدمة عن هذا الدليل الجامع

جمعت هذا الدليل ـ أو ما إصطلحت على تسميته كذلك ـ من مطالعاتي ودراساتي على إمتداد سنوات طويلات. بعضه مما كتبه العلامة إبن عاشور و الإمام القرضاوي والشيخ الغزالي والدكتور العلواني والفقيه الزرقا والدكتور محمد عماره والدكتور عبدالمجيد النجار والدكتور الريسوني والشيخ الحبنكة والدكتور الجديع والدكتور الترابي وغيرهم. وبعضه مما إجترحته أنا بنفسي تفكيرا وتحريرا. وبعضه من الحديث النبوي الصحيح. هذا الدليل هو مجموعة من القواعد والأصول والأركان التي تقود المتدين لمعالجة حياته الخاصة والعامة بتفكير صحيح وعقل سليم. جلّ تلك القواعد والأصول مبثوث تحريرا في هذا الكراس ـ أي فيما أنف منه ـ سواء بشكل مباشر أو بعبق منه وأثر عنه كما حاولت ترتيب مركبات هذا الدليل ضمن محاور خمسة وهو ترتيب إجتهادي تقديري ذلك أن بعضها ينتمي في الآن نفسه لأكثر من محور كما حاولت الإقتصاد ما إستطعت إذ أني مولع بجمع مثل هذا مذ تكحلت عيناي بشذى الكتاب الذي ما إبتغيت عنه خليلا وأنا شاب أفيض حياة

محور قيمي أعلى

* أركان منظومة القيم الإسلامية الثلاثة

العبادة

الزكاة قلبا وعقلا معا

العمارة

* أهداف الإسلام

تحرير العقل البشري من رق التقليد والخرافات

إصلاح الفرد نفسيا وخلقيا وتوجيهه نحو الخير والإحسان

إصلاح المجتمع والحياة ليسود الأمن والعدل والحرية والكرامة

محور تفكيري عام

* أركان التفكير الإسلامي الأوفى عقديا

المنزع التوحيدي

المنزع العلمي سننيا وسببيا وعقليا

المنزع المقاصدي

المنزع النقدي والجدلي المقارن

المنزع الجماعي

* محاور القرآن الكريم الكبرى

الله : من هو؟

البعث

القصص والأمثال

الكون

التربية والتشريع

* مناهج التفكير الإيجابية

المنهج العلمي لا التقليدي

المنهج الواقعي لا المحنوي ـ نسبة إلى المحنة ـ

المنهج التجديدي المؤصل لا المنبت أصلا أو عصرا

المنهج الوسطي المعتدل لا الخارجي (أو الخوارجي) أو الباطني أو الظاهري

المنهج المستقبلي لا الماضوي

محور ديني

* مصادر التشريع الإسلامي وتراتبيتها

القرآن الكريم أوّلا

السنة النبوية ثانيا قولا وعملا وإقرارا

الإجماع عند ثبوته قطعا

القياس بأركانه جلاء وخفاء وتقديرا مرسلا

الإستصلاح والإستحسان

الإستصحاب والإستعراف

الذرائعية فتحا وسدا

* السلم المقاصدي ثلاثي التركيب

الضرورات والكليات وخلاصتها حرمة الإنسان

الحاجات والضرورات

التحسينات والكمالات

* أركان القواعد الأصولية الفقهية السبع الحاكمة

العبرة بالمقاصد والمباني وليس بالأشكال والمباني

الأصل في الأشياء الإباحة وفي العقود المشروعية

لا ضرر ولا ضرار والضرر يزال

العادة محكمة والمعروف عرفا كالمشروط شرطا

اليقين لا يزول بالشك والأصل بقاء الشيء على ما كان عليه

المشقة تجلب التيسير والحاجة ضرورة ولا ينكر تغير الأحكام الظنية والفتاوى بتغير الموجبات

لا ثواب إلا بنية

* أركان العبادة أو مستوياتها الثلاثة

الإسلام

الإيمان

الإحسان

* أركان الإيمان الستة

الإيمان بالله

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالكتب

الإيمان بالرسل

الإيمان بالقدر خيره وشره

* أركان الإسلام أو مبانيه

شهادة التوحيد : لا إله إلا الله محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام

إقام الصلاة

إيتاء الزكاة

صوم رمضان

حج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا

* أركان كبائر الذنب العظمى

العدوان على حق الله سبحانه إشراكا به

العدوان على حق النفس تركا لمواقع أغذيتها تزكية وتطهيرا صلاة وصوما وزكاة وحجا

العدوان على حق الوالدين

العدوان على حق ذوي القربى والرحم

العدوان على حق الجوار

العدوان على حقوق الإنسان بصفة عامة بكل أشكان العدوان

محور الفهم والعلم والفقه

* أركان الفهم الصحيح

اللسان العربي

البعد المقاصدي

البعد التاريخي أو الظرفي

البعد التكاملي

البعد العلمي العقلي

البعد الإصلاحي لأجهزة التلقي

* أركان العلم والحكمة

الإحتكام إلى النصوص المعصومة لا إلى أقوال الرجال

رد المتشابهات إلى محكماتها والمظنونات إلى قطعياتها

فهم الفروع والجزئيات في ضوء أصولها وكلياتها

إعمال العقل التجديدي النقدي وهجران الجمود والخمول

التيسير في الفقه والتبشير في الفتوى والدعوة

غرس الأمل واليقين ونبذ الجدل واليأس

العناية بالروح لا بالشكل سيما تعبديا

الإتباع في الدين والإبتداع في الدنيا

لزوم العمل والجدية ونبذ التسيب والإمعية

* أركان المنهج الأمثل لحسن فقه القرآن الكريم

الجمع بين الرواية والدراية

تفسير القرآن بالقرآن نفسه أوّلا

تفسير القرآن بالسنة الصحيحة والإنتفاع بتفسير الصحابة والتابعين

الأخذ بمطلق اللسان

مراعاة السياق

ملاحظة مناسبات النزول وملابسات التاريخ

تحكيم القرآن في كل شيء وإعتباره مرجعا حاكما متبوعا لا تابعا

التمييز بين مقامات التشريع

* أركان المنهج الأمثل لحسن فقه السنة والحديث النبوي

فهم السنة والحديث في ضوء القرآن الكريم

جمع الحديث المتعلق بموضوع واحد تحسّبا للنسخ والتقييد والتخصيص والتفصيل

الجمع بين مختلف الحديث أو الترجيح والجمع مقدم ما أمكن ذلك

فهم الحديث في ضوء أسبابه وملابساته وظروفه ومقاصده وخصوصياته

التمييز بين الوسيلة المتغيرة والمقصد الثابت

التمييز بين الحقيقة والمجاز وبين الغيب والشهادة والمنطوق والمفهوم

* من مقامات الشرع عند الإمام إبن عاشور

مقام البلاغ

مقام الفتوى

مقام القضاء

مقام الإمامة إدارية سياسية أو عسكرية

مقام الإستشارة

مقام البشرية والجبلية

مقام الهدي

مقام الصلح والنصيحة

مقام تكميل النفوس

مقام الولاية العائلية

* من موانع الفهم الأحسن

التشبث بالحروف قبل المعاني

التعصب المذهبي أو المدرسي أو غير ذلك من أشكال التعصب

الخلط بين قول فاسد وتأويل أو بين إختلاف معتبر وإختلاف غير معتبر

الإصرار على ذنب أو هوى

سوء التأويل أو وضع النص في غير موضعه المناسب

دعوى النسخ بلا برهان

الجهل بالسنن والآثار وإجتهادات السالفين

الثقة بالإسرائيليات

الشرود عن إجماع الأمة ما ثبت

ضعف التكوين العلمي والملكة الفقهية

* خارطة الشريعة الإسلامية ومحال الإجتهاد

القطعي ورودا ودلالة : لا يطؤه الإجتهاد

القطعي ورودا والظني دلالة : محل إجتهاد من أهله

الظني ورودا والقطعي دلالة : محل إجتهاد من أهله

الظني ورودا والظني دلالة : محل إجتهاد من أهله

محور إجتهادي إصلاحي

* أركان الأمة الخمس العظمى

الركن العلمي المحيل إلى المعرفة والبحث والدراسة والإكشتاف والإختراع والتجديد والإجتهاد

الركن الإجتماعي المحيل إلى الصف الواحد المرصوص وهو متنوع متعدد مختلف بالضرورة

الركن العملي المحيل إلى التشاور والتراضي والتحاور إعترافا بالتنوع والإختلاف والتعدد

الركن المادي المحيل إلى القوة والحديد صناعات مدنية وصناعات عسكرية

الركن الإصلاحي المحيل إلى التواصي بالمعروف وبالمرحمة وبالحق وبالصبر فريضة

* أركان الإصلاح وشروطه

العلم بمقصد الشارع من حكمه

التحقق من المآل والمحل ومناسبته لإستقبال الحكم وتنفذه

التجزئة والإفراد والتشخيص وليس التعميم والحكم بالجملة

إعتبار مبدإ الضرورات والحاجات والمصالح المعتبرة

العلم بالمنكرات والخبائث علما صحيحا والتحقق من حياتها حياة صحيحة

التمييز بين تلك المنكرات والخبائث إذ هي ليس على درجة واحدة

إعتماد التدرج وتقديم الأرفق موعظة وتحذيرا على الأعنف عقوبة ومؤاخذة

تقديم التربية المنهاجية الصحيحة

التعبئة الجماعية لمشروع الإصلاح وعقبة التغيير

توخي العقلانية والإقناع

التحقق من أن الإصلاح المأمول أدنى تكلفة من السائد وأقل ضررا منه

توخي الإصلاحات الجذرية بدء بالحكم والسلطان والدولة وغياب التراضي والتشاور

إعتبار آثار تاريخية غابرة وأخرى حاضرة

درأ الحدود بالشبهات وتوفير موازنة بين جنس العمل وجنس الجزاء ثوابا وعقابا

* أركان فقه الخلاف

سعة الإطلاع والمعرفة والعلم قدر الإمكان

الإخلاص ونشدان الحق لا التعصب الأعمى

الإفادة مما عند الآخر

الإعتراف بالآخر والقبول به أساسا للحوار والتعاون معا على المتفق عليه

* من قوانين الإجتماع وسنن الإصلاح وقواميس التغيير

تحمل المسؤولية الفردية أو قل هو من عند أنفسكم

حسن التعالج مع قانون التدافع الماضي

حسن التعالج مع قانون التداول المطرد

الترف مظنه فساد والملك مظنة إفساد

ذلة الإجتماع السياسي أقل كلفة من عزة الأنفة الزائفة

حمل الناس على الحق جملة مظنه تركه منهم جملة

الرواحل الجامعون بين الحفظ والعلم أو بين الأمانة والقوة هم المستأمنون على الناس وحرماتهم

المواطنة المتساوية حقوقا وواجبات هي أصل الإجتماع السياسي وليس الدين ولا الإسلام نفسه

كلمة أخيرة

الحمد لله الذي أعانني بفضله على إتمام هذا الكراس (التدين الإسلامي : قواعده وأولوياته وآفاته) والشكر لوالديّ ـ عليهما الرحمة معا ـ إذ ربياني صغيرا فعلّماني وهما أمّيان. ومن أمّيتهما نفث الله الذي علم بالقلم في روعي ما به أنطقني من صمم وأطلق قلمي من عجمة. والثناء على كلّ من تعلمت منه يوما حرفا ولن أزال ما حييت طويلب علم حاب. سيفه البتار لسان وسلاحه الفتاك قلم ينثران الحب والرفق لأهلهما. غرضي من هذا الكراس هو الدعوة إلى تدين إسلامي عنوانه (فاستقم كما أمرت) وليس كما تريد أنت. إذ أن من أنزل منهاج التدين هو نفسه من أنزل شرعة التدين. أربي هو جمع الميزان أو الحكمة إلى الكتاب لنقوم بالقسط. ذلك أن التدين فطرة مجبولة أشد إنغرازا فينا من الأكل والشرب. الدين هو المثال المعصوم. أما التدين فهو مهمة الإنسان الذي إبتدع تدينات مائلة إلى هنا أو إلى هناك فيها ما تعرف وفيها ما تنكر وما ينكر فيها أغلب. ولا قيمة لتدين يفقد مقصده الأسنى وهو تحرر صاحبه من كل الإستعبادات الممكنة والإسترقاقات الموضوعة جعلا من شياطين الإنس والجنّ معا. بذلك العقل التحرري الإنعتاقي ينطلق المتدين محررا للناس متعاونا معهم على ذلك مستلهما حاجات عصره وضرورات زمانه ومكانه وأهله أن

يغويهم بلسان سليق وهو يحدثهم عن قرون الشيطان والقمع يحصد حرماتهم حصدا أو عن عذابات القبر والدولة وما يحيط بها تجهز لهم أكفانا لتئدهم أحياء. التدين فكرة فجاهد وأنفق وسافر لتحرر فكريا أوّلا حتى من الأنساق التي حصنت نفسها بالإجماع الديني حينا أو بالمذاهب المنغلقة حينا آخر. فلا عبرة لحرية تعبير وصاحبها مأسور في نظام فكري يسجنه. ليكن شعارك في الحياة : لا تعطني دينا جاهزا بل علمني كيف أتدين ولا تجعل تدينك أسير مذهب أو سلف أو خلف أو مدرسة وكن النحلة التي تطرق كل حديقة وتمص رحيق كل زهرة لتلد شرابا مختلفا ألوانه هو شفاء للناس. كن متدين عصرك ومكانك متأصلا في فلسفة الدين وليس في تاريخ الدين أو ملاحم التدين. تلك هي رسالة هذا الكراس ومرحبا بكل ناقد موضوعي وناصح أخوي

والحمد لله رب العالمين في الآولين والآخرين والصلاة والسلام على خير متدين فوق الأرض وتحت السماء سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام الطيبين

بوخوم ـ ألمانيا

آخر صفر الخير 1441 ـ آخر أكتوبر 2019

المؤلف

* كاتب وسياسي تونسي من مواليد 6 جوان 1955 بمدنين ، متزوّج وأب لستّة من الولد ولعشرة من الحفدة.

من مؤسّسي الحركة الإسلاميّة وانخرط فيها سنة 1976، تحمّل مسؤوليات قياديّة كثيرة منها عضويّة مجلس الشّورى من 1994 حتى اليوم ومنها عضويّة المكتب التّنفيذي ومنها الكتابة العامّة الجهوية وغيرها... سجن بسبب ذلك عام 1987 وحكم عليه بخمسة عشر عاما سجنا نافذا وبزهاء عشرين عاما غيابيّا أعـــوام 1992 و2010. أقام لاجئا سياسيّا في ألمانيا لمدّة تزيد عن عشرين عاما، اشتغل خطيبَ جمعة وإمام خمس وداعية وكاتبا، مؤلف لعدد من البحوث والدّراسات محبوسة بسبب العجز عن طبعها ونشرها.

* عضو الأمانة العامّة للتّجمع الأوروبّي للأئمة والمرشدين وعضو مؤسّس بهذا الهيكل الدعوي الأوروبي وعضو بهيئة الدّعاة والعلماء في ألمانيا وعضو مؤسّس بها كذلك وعضو مؤسّس بجمعيّة مرحمة للإغاثة بتونس وألمانيا 2015.

* متحصّل على شهادة التّقنية الإقتصادية للتّصرف دورة 1974، اشتغل متصرّف مساعد في عدد من الشّركات الوطنيّة من مثل الشّركة التونسية للكهرباء والغاز والشّركة الإيطالية التونسية للإستغلال النفط .

* له العديد من المقالات الصادرة بمجلّة الإصلاح .

* صدر له كتاب «من قصص القرآن» ضمن سلسلة كتاب الإصلاح

* البريد الإلكتروني : brikhedi@yahoo.de

ر.د.م.ك: 4 - 106 - 59 - 9938 - 978 :ISBN